الحبيب السالمي

مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn

الاشتياق إلى الجارة

رواية

دار الآداب

الاشتياق إلى الجارة

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

الاشتياق إلى الجارة

الحبيب السالمي / روائي تونسي

الطبعة الأولى عام 2020

ISBN 978-9953-89-671-7

حقوق الطبع محفوظة

تم تحويل هذا الكتاب بدعم من مبادرة **أضواء على حقوق النشر** التي أطلقها معرض أبوظبي الدولي للكتاب 2021 التابع لمركز أبوظبي للغة العربية دون تحمّلهما أية مسؤولية عن محتوى الكتاب.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

Daraladab @Daraladab daraladab.com

الحبيب السالمي

الاشتياق إلى الجارة

رواية

دار الآداب - بيروت

– 1 –

الآن صرت أراها عدَّة مرَّات في اليوم.

اسمها زهرة. لكنَّ أغلب سكَّان العمارة التي نقيم فيها معًا يسمُّونها «مدام منصور». وآخرون يسمُّونها «الخادمة» أو «التونسيَّة», تمامًا مثلما يسمُّون مدام رودريكيس، وهي السيِّدة التي تأتي كلَّ مساءٍ لإخراج حاويات القمامة من العمارة ووضعها على الرَّصيف، بـ «البرتغاليَّة», والسيِّد غونزاليس الذي يقيم وحده في شقَّة في الطابق الخامس من العمارة بـ «الإسبانيّ».

فرحت زهرة حين اكتشفت أنَّ تونسيًّا آخر، عداها وعدا زوجها منصور وابنها الوحيد كريم، هو من بين سكَّان العمارة. كانت تتصوَّر أنَّهم كلُّهم فرنسيُّون. استغربتُ ذلك، فكلّ ما في وجهي من ملامح يدلّ على أنَّني لست فرنسيًّا. صحيح أنَّ الفرنسيِّين ليسوا كلُّهم شقرًا بيض البشرة زُرق العيون، بل هناك فرنسيُّون يشبهون العرب إلى حدٍّ ما. لكن هناك فرق واضح بيني وبين هؤلاء.

ومنذ أن عرفَت أنَّني تونسيّ، لم تعد تتحدَّث معي بالفرنسيَّة التي تعلَّمَتها من احتكاكها بالفرنسيِّين وتتكلَّمها بسهولة وتنطقها بوضوح خلافًا للكثير من المهاجرين العرب الذين هم في سنِّها، وخاصَّة النِّساء منهم. صارت تتحدَّث معي بالدارجة التونسيَّة إلَّا حين نكون برفقة سكَّان العمارة، فهي ترى أنَّه ليس من اللَّائق التَّحدُّث أمام جيراننا بلغة لا يفهمونها.

والسَّبب الذي جعلني أراها عدَّة مرَّات في اليوم ليس إقامتنا في العمارة ذاتها، فهناك سكَّان لا أراهم إلَّا مرَّة واحدة في الشهر، وإنَّما لأنَّها صارت تعمل خادمة لدى عجوز في التِّسعين من عمرها اسمها مدام ألبير وتقع شقَّتها في الطابق الأوَّل حيث شقَّتي، بل مقابلها تمامًا. والمساحة الفاصلة بين بابَيْنا لا تتعدَّى المتر الواحد، فالممرَّات في الطوابق ضيِّقة كما في أغلب عمارات باريس. ويحدث

في بعض الأحيان حين نخرج أنا ومدام ألبير من شقَّتَيْنا، أو ندلف إليهما في الوقت نفسه، أن تتلامس الأكياس والسلال التي نحملها، أو حتّى أطراف ثيابنا.

تقيم مدام ألبير بمفردها في الشقَّة. لا إخوة لها ولا أخوات، فهي وحيدة والدَيْها. ولا أحد يزورها إلَّا صديقة لها في سنِّها.

روَت لي زهرة فيما بعد أنّ لها علاقة قرابة غامضة بسيِّدة تقيم في بروكسل وتخابرها مرَّتيْن في السَّنة. مرَّة لتهنئتها بعيد ميلادها، ومرَّة لتهنئتها برأس السنة. ويُشاع أنَّ مدام ألبير كانت تحبّ الرجال وأنَّها عشقت الكثير منهم، لكنَّها لم تتزوَّج قطّ. وهي لا تنزعج من أن يناديها الناس بـ «مدموازيل» ألبير بدلًا من «مدام» ألبير. لكن لا أحد من سكَّان العمارة يجرؤ على ذلك احترامًا لها. ثمّ إنَّ إطلاق صفة الآنسة على عجوز في التِّسعين يبدو أمرًا غريبًا.

كانت في حاجة إلى امرأة تخدمها. تنظِّف البيت. تطبخ لها الطعام. تحمِّمها. تُقلِّم أظافرها. تساعدها على ارتداء ثيابها وترافقها في جولتها في الحيّ، والتي تحرص على القيام بها مرَّتيْن في اليوم. ولم تجد من هو أفضل من زهرة المهذَّبة اللطيفة. والأهمّ من كلِّ هذا أنّها تقيم في العمارة نفسها، ممَّا يجعلها على استعداد دائم لخدمتها في كلّ الأوقات حتّى في اللَّيل.

أمَّا زهرة، فهي مضطرَّة إلى العمل في البيوت، فمنصور الذي يكبرها بعدَّة أعوام متقاعد، وكريم يعاني من إعاقة جسديَّة وهو عاطل عن العمل. وتدفع مدام ألبير لزهرة مقابل هذه الخدمات أجرًا مرتفعًا، كما تمنحها في المناسبات الدِّينيَّة كعيد رأس السنة وعيدَيْ الفطر والأضحى مبالغ إضافيَّة، فمدام ألبير كريمة، وغنِيَّة على ما يبدو. يُقال إنَّ لها عدا الشقَّة التي تقيم فيها شققًا عديدة أخرى للإيجار في باريس.

كنت قد رأيت زهرة منذ الأيَّام الأولى التي سكنت فيها العمارة. كنت ألتقي بها بين الحين والآخر في المدخل أو المصعد أو الدرج، أو أمام صناديق البريد، أو في الفناء حيث حاويات القمامة. ظننت آنذاك أنَّها تقوم بخدمات في بعض البيوت، وهذا ما يبرِّر وجودها في العمارة، فهناك عربيَّات كثيرات يشتغلن لدى الفرنسيِّين. كانت تُحيِّيني دائمًا. أعتقد أنَّها تفعل هذا مع كلّ سكَّان العمارة. وأحيانًا كانت تسألني عن السَّاعة، أو تُبدي ملاحظة عن الطقس المتقلِّب، أو عن حاويات القمامة، أو عن ساعي البريد.

كنت أرى أيضًا كلّاً من منصور وكريم، لكن بدرجة أقلّ بكثير ممَّا كنت أراها هي. وكنت أجهل أنَّهما زوجها وابنها. كنتُ أظنّ أنَّهما يأتيان لعيادة الطبيب التي توجد في الطابق الثاني، فهناك غرباء كثيرون يتردَّدون على العيادة. لم يخطر ببالي إطلاقًا أنَّها تنتمي مع هذَيْن الرجلَيْن اللذين لم أكلِّمهما أبدًا إلى عائلة واحدة، وأنَّ هذه العائلة تُقيم في إحدى الشقق في عمارتنا.

وأوَّل سؤال تبادر إلى ذهني هو كيف يمكن لخادمة تعمل في البيوت، زوجها متقاعد وابنها عاطل عن العمل، أن تُقيم في شقَّة في عمارة من الطراز المعماريّ الهوسمانيّ الراقي، في حيّ لا يعدّ من أحياء باريس الفقيرة؟ ظننتُ في البداية أنَّها تقيم في شقَّة صغيرة ضيِّقة، أو في واحدة من هذه الغرف التي توجد في الطابق الأخير والتي تُسمَّى غرف الخادمات، لأنَّ الخادمات اللَّاتي كنَّ يشتغلن في العمارة فيما مضى كنَّ يسكنَّ في هذه الغرف. ولكنَّني اكتشفت أنَّ شقَّتها لا توجد في الطابق الأخير، بل في الطابق الخامس، وأنَّها لا تختلف عن شقَّتي؛ إذ إنّ كلَّ الشقق في العمارة، حتّى تلك التي توجد في الطابق الخامس، لها التَّصميم نفسه والمساحة نفسها. وما زاد في حيرتي أنَّ الشِّقَّة ليست مستأجرة، بل هي ملك لزهرة ولزوجها.

كنَّا أنا وزوجتي الفرنسيَّة بريجيت في وضع ماديّ جيِّد، بل يمكن أن نعتبره مُمتازًا. أنا أستاذ رياضيَّات، وأعمل منذ إكمال دراستي الجامعيَّة التي هاجرتُ من أجلها إلى فرنسا في جامعة حكوميَّة فرنسيَّة، ممَّا يضمن لي راتبًا محترمًا ويجعلني في مأمن من شبح البطالة الذي صار يهدِّد الكثيرين في الأعوام الأخيرة. في حين تشتغلُ بريجيت منذ فترة طويلة كموظَّفة في فرع باريسيّ لبنك إسبانيّ كبير، لأنَّها تُتقن اللُّغة الإسبانيَّة التي درستها في الجامعة. عائلتنا صغيرة، فليس لنا سوى ابننا سامي.

وقد ترك البيت واستقلّ بحياته منذ أن تخرَّج من الجامعة، وعثر على عمل في إحدى الشركات الكبرى. كنَّا نتحكَّم في المصاريف ولنا مدخَّرات. ومع ذلك، عندما قرَّرنا اقتناء شقَّة في هذه العمارة، اضطررنا إلى اللُّجوء إلى البنوك للحصول على قرض. ونحن ندفع الآن لتسديده كلّ شهر أقساطًا تُعادل ربع مجموع راتبَيْنا، فكيف استطاعت زهرة وزوجها شراء شقَّتهما؟

ثمَّة شيء آخر استغربته؛ وهو أنَّ العرب، مثل زهرة وزوجها اللَّذَيْن ينتميان إلى وسط اجتماعيّ متواضع ولهما ثقافة محدودة، لا يختارون عادة الإقامة في شقق تقع في باريس وأغلب سكَّانها فرنسيُّون، حتّى لو كانت لهم إمكانيَّات مادِّيَّة كبيرة.

إنَّهم يُؤثرون الإقامة في بلدات الضواحي ومدنها حيث يتواجد العرب بكثرة، ممَّا يخفِّف من إحساسهم بالغربة والعنصريَّة، وحيث تتكاثر محلَّات اللَّحم الحلال والموادّ الغذائيَّة والخضار والفاكهة التي يُفضِّلونها، وحيث الأسعار أقلّ ارتفاعًا ممَّا هي في باريس.

كنت أتساءل باستمرار أيضًا عن السَّبب الذين يجعلهم يصرُّون على البقاء في فرنسا بعد توقُّف منصور عن العمل. أغلب التونسيِّين المهاجرين يغادرون فرنسا فور إحالتهم إلى المعاش ويعودون إلى تونس، حيث يشيِّدون فيلّات ويفتحون متاجر ويشترون مزارع. هناك يقضون الأعوام المتبقِّية من أعمارهم في عزٍّ يُنسيهم كلّ ما عانوه أثناء غربتهم الطويلة. وهناك يُتوفَّون بين أهلهم، ويدفنون في تراب القرى والمدن التي وُلِدوا فيها.

لماذا تهتمّ بهذا الأمر.. إنَّه لا يعنيك؟ تقول لي زوجتي بريجيت بقليل من العتاب عندما أحدِّثها عن ذلك، وهذا ما يحدث بين الحين والآخر آملًا في العثور على إجابة مقنعة عن أسئلتي. الحقيقة أنَّ بريجيت ليست فضوليَّة مثلي. فهي نادرًا ما تهتمّ بما يحدث في العمارة، ولا تتحدَّث عن سكَّانها إلَّا حين تتضايق كثيرًا من أمرٍ ما، على غرار نُباح كلب السيِّدة التي تقيم في الطابق الثاني برفقة أمّها العجوز، والتي يُشاع عنها أنَّها هي أيضًا لم تتزوَّج قطّ وأنَّها لا تزال آنسة مثل مدام ألبير.

أعترف أنَّني، منذ أن بدأتُ أهتمّ بزهرة وعائلتها، أستسلم في بعض الأحيان لخيالي، فأذهب بعيدًا في تصوُّر قصص غريبة ومثيرة عنها وعن زوجها تشبع فضولي. بيد أنَّ المعلومات التي تمكَّنتُ من جمعها بصعوبة فيما بعد وضعتْ حدًّا لكلّ هذا.

هاجرَ منصور في فترة كانت فيها فرنسا وأوروبا كلُّها مفتوحة للأجانب. لم تكن هناك بطالة في هذه البلدان في ذلك الوقت. وكان كلّ المهاجرين يعثرون بسهولة على عمل. ولم تكن العنصرية منتشرة كما هي الآن. اشتغلَ لبضعة أعوام في قطاع البناء، ثمّ حالفه الحظّ، فانتُدِب للعمل في مصانع سيَّارات رينو الشهيرة. وظلّ يشتغل هناك حتّى أحيل إلى المعاش.

يُشاع أنَّه كان سكِّيرًا وعنيفًا، وأنَّه كان يخالط القوَّادين وبائعي المخدّرات. وبعد تعرُّفه على زهرة وزواجه منها، تغيَّر كثيرًا. استطاع بعد عدَّة أعوام، توفير مبلغ ماليّ مهمّ. وتمكَّن بعد الحصول على قرض صغير، وبمساعدة مصانع رينو، من شراء الشقَّة. حدث هذا قبل أكثر من

ثلاثين عامًا، في فترة كان فيها الحيّ فقيرًا وسوق العقار كاسدة. وكانت العمارة ذاتها آنذاك مهملة. وقد تمَّ ترميمها فيما بعد، فصارت على ما هي عليه الآن. هذا كلّ ما في الأمر.

أمَّا لماذا لم يعودوا إلى تونس بعد تقاعد منصور، فهذا يعود أساسًا إلى إعاقة الابن، والتي تستوجب علاجًا مستمرًّا يتلقَّاه في أكبر المستشفيات الفرنسيَّة مجَّانًا. ولأنَّه مُعاق وعاطل عن العمل، فإنَّ صناديق الرعاية الاجتماعيَّة تمنحه تعويضات ومعونات. كما تحصل أمَّه زهرة أيضًا على إعانة بطالة. وبالطبع، حين يعودون إلى تونس، سيحرمون من كلّ هذا.

منذ أن علِمَت زهرة أنَّني تونسيّ، صار منصور يلقي عليَّ التحيّة كلَّما التقينا في مدخل العمارة. وأمَّا قبل ذلك، فكان يكتفي بالنَّظر إليَّ من دون أن يقول شيئًا. في بعض الأحيان، يهزّ رأسه هزَّة خفيفة جدًّا بالكاد أنتبه إليها. تظلّ تلك الحركة غامضة بالنِّسبة إليَّ. كنت لا أدري إن كان يودّ بذلك تحيَّتي، أو أنَّ رؤيته لي قد باغتته. في الواقع، كنت نادرًا ما ألتقيه، فهو قليل الخروج. وإن خرج ففي أوقات مختلفة عمومًا عن أوقات خروجي.

وبقدر ما كانت زهرة تهتمّ بمظهرها الخارجيّ، كان منصور مهملًا. كان يرتدي دائمًا ثيابًا قديمة وتبدو فضفاضة بالنِّسبة إلى جسده النحيل. في أغلب الأحيان، كانت ذقنه غير حليقة وما تبقَّى من شعره غير ممشوط. بيد أنَّ ما كان يشدّ انتباهي هو أنَّه لا ينتعل أحيانًا حذاء، وإنَّما مشايَّة أو خفًّا من النوع الذي يُستعمل داخل المنزل. وحين يكون الطقس باردًا، لا يرتدي جواربًا.

كان الكثير من سكَّان العمارة ينظرون إليه بشيء من الاستغراب؛ إذ لا يجوز مغادرة الشقَّة في مثل تلك الحال من الإهمال حتّى لو بقي داخل العمارة. وبريجيت ذاتها بدأت هي الأخرى تتحدَّث بين الحين والآخر عن حالة «مسيو منصور» كما تسمِّيه؛ إذ إنَّ الفرنسيِّين حريصون على ذكر كلمة «مسيو» حين يتحدَّثون عن شخص لا يعرفونه جيِّدًا، حتّى لو كان هذا الشخص متشرِّدًا أو لصًّا أو مجرمًا، وهذا ما أستغربه كثيرًا ولم أتعوَّد عليه إلى حدّ الآن.

ولأنَّه تونسيّ مثلي، فقد كانت تطرح عليَّ أحيانًا أسئلة أطرحها أنا بدوري ولا أمتلك أيَّ إجابة عنها. ألم ينتبه إلى أنَّ سكَّان العمارة ينظرون إليه باستغراب؟ لماذا لا يمشِّط شعره؟ ألا يشعر بالبرد عندما يخرج في الشتاء من دون جوارب وبخفّ من هذا النوع؟ والسُّؤال الذي كان يحيِّرها أكثر من غيره، هو كيف تسمح له زهرة بالخروج وهو على هذه الحال من الإهمال؟

يُشبهُ كريم أمّه. خَلقةً وسلوكًا. يعتني بمظهره الخارجيّ. ملابسه نظيفة دائمًا. وينتعل في بعض الأحيان أحذية ملمَّعة، ويرتدي ثيابًا تبدو كلاسيكيَّة بالنِّسبة إلى شابّ في عمره الذي قدَّرتُ أنَّه يفوق الخامسة والعشرين بقليل. لا شيء في الظاهر يربطه بأبيه، حتّى أنَّني تساءلت في فترة ما عمَّا إذا كان منصور أباه حقًّا، وعمَّا إذا كانت زهرة قد أنجبته من رجل آخر في زواج سابق.

هو أيضا تغيَّر منذ أن اكتشفت أمّه أنَّني تونسيّ. صار يحيِّيني بحرارة لا تتمثَّل في ابتسامته التي ازدادت اتِّساعًا فحسب، وإنَّما أيضًا في إصراره على مصافحتي. كان يعرج عرجًا خفيفًا بسبب إعاقته. حالما يراني، يتقدَّم صوبي بسرعة حتّى أنَّني كنت أخشى أن يفقد توازنه فيقع على الأرض. وكي أسهِّل عليه المهمَّة، صرت أنا أيضًا أتقدَّم صوبه. بعد مصافحتي، يصمت. كان يتحاشى النَّظر إلى وجهي، بل يبدو لي خجولًا، ممَّا يوقعني أحيانًا في حالة من الحرج. ومن حسن الحظّ أنَّ اللِّقاء لا يدوم سوى بضع ثوان. كنت أستغرب هذا التصرُّف في بادئ الأمر، فكريم يبدو من بعيد طبيعيًّا تقريبًا مثل أيّ شابّ في عمره. ولفترة قصيرة، تساءلت عمَّا إذا كان يعاني من إعاقة ذهنيَّة خفيفة إلى جانب إعاقته الجسديَّة.

– 2 –

انتابتني أحاسيس متناقضة حين اكتشفت أنَّ هناك عائلة تونسيَّة كاملة تُقيم في عمارتنا ولا تفصل شقَّتها عن شقَّتي سوى ثلاثة طوابق. أوَّل إحساس ساورني هو الارتياح، فأنا منذ وقت طويل لا أخالط سوى الفرنسيِّين بحكم عملي في جامعة فرنسيَّة، وبحكم أنِّي متزوِّج من فرنسيَّة. كان لديَّ بالطبع أصدقاء تونسيُّون في فترة ما. بعضهم أعرفه من تونس. وبعضهم الآخر تعرَّفت عليه هنا في فرنسا. كنَّا نلتقي بين الحين والآخر. لكن بعد أن تزوَّجنا وصار لنا أبناء، تناقصت لقاءاتنا كثيرًا.

وكلَّما تقدَّمنا في السنّ، ابتعدنا عن بعضنا بعضًا، حتّى إنَّنا لم نعد نلتقي إلَّا نادرًا. الحقيقة أنَّ أمورًا كثيرة حدثت خلال الأعوام الماضية. توفِّي اثنان منهم. وانتحر آخر بإلقاء نفسه في نهر السِّين وهو سكران، بعد أن طلَّقته زوجته ـ الفرنسيَّة أيضًا. كما عاد عدد منهم إلى تونس نهائيًّا، لأنَّهم لم يعودوا يحتملون قسوة الحياة والبرد في أوروبا.

منذ أن قرَّرت أن أستقرّ في فرنسا بعد إكمال دراستي، اندمجت في الوسط الفرنسيّ وصرت أتصرَّف مثل الفرنسيِّين، ممَّا سهَّل عليّ عدَّة أمور، سواء في علاقتي بزوجتي وبمن أخالطهم من الفرنسيِّين، أو في مهنتي. زياراتي لتونس تناقصت كثيرًا. حتّى العطل صرت أقضي أغلبها في بلدان أخرى وتحديدًا في إسبانيا. بريجيت وابني يكرهان تونس في الصيف بسبب الحرّ الشديد وضجيج الأعراس وقذارة الشواطئ وتكاثر البعوض. وهناك سبب آخر جعلني أنقطع عن زيارة تونس بهذا الشكل، وهو أنَّ أبي وأمِّي اللذين كانا يربطانني بالبلد توفِّيا منذ فترة طويلة. لم يتبقّ لي من العائلة في تونس سوى أخت أكبر منِّي تقيم في قرية صغيرة في عمق الرِّيف، يصعب الذهاب إليها، وأخ أصغر يقيم في نابل، علاقتي به ليست جيِّدة بسبب زوجته التونسيَّة التي لا تستلطفني وتجدني متعاليًا، فضلًا عن أنَّها تغار من بريجيت. كانت ترفض حتّى أن تسمِّيها باسمها، وتناديها

دائمًا بكلمة «الغاوريّة» للحطّ من شأنها، كما لو أنَّها ليست زوجة لأخي زوجها، وإنَّما أجنبيَّة مثل كلّ الأجنبيَّات.

لكن إلى جانب هذا الارتياح، أحسست بشيء من الخجل والارتباك، فهذه العائلة ليست من مستواي الاجتماعيّ والثقافيّ. ثمّ إنَّ الصُّورة التي تقدِّمها عن التونسيِّين ليست جيِّدة. صحيح أنَّ زهرة امرأة مهذَّبة ولطيفة، ولكنَّها خادمة تعمل في البيوت. الجميع في العمارة يعرفون ذلك. وزوجها لا يعتني بمظهره وغريب الأطوار، على الأقلّ كما يظهر من بعيد. أمَّا ابنها، فهو عاطل عن العمل ويعاني من إعاقة جسديَّة.

حرصتُ في مرحلة أولى على أن تكون علاقتي بأفراد عائلة زهرة سطحيَّة. كنت لا أنبسط كثيرًا حين ألتقيهم، ولا أتجاوز في حديثي معهم الشؤون العامَّة، ولا أحيِّيهم إلَّا بما يقتضيه التَّهذيب. لكن في الآن ذاته، كنت حريصًا على ألَّا يشعروا أنَّني تغيَّرت، فصرت أتحاشاهم حين اكتشفت أنَّهم تونسيُّون مثلي؛ وهو سلوك شائع لدى عدد من التونسيِّين. لم تدم هذه المرحلة سوى بضعة أشهر تمكَّنت خلالها من السَّيطرة على ارتباكي إلى حدّ كبير، والتَّخلُّص من إحساسي بالخجل والعار.

وشيئًا فشيئًا، بدأت أتغيَّر. والحقيقة أنَّ سلوك زهرة هو الذي غيَّرني. كنت موقنًا من أنَّها لاحظت هذا الارتباك لديّ، بل ربَّما انتبهت إلى شعوري بالخجل، فهي امرأة ذكيَّة وحسَّاسة على ما يبدو. ومع ذلك، ظلَّت تُحيِّيني وتتصرَّف معي بكثير من التَّهذيب. وكلّ يوم أزداد تأكُّدًا ممَّا لاحظته منذ بداية اهتمامي بها، وهو أنَّ لها خصالًا لا يمكن إلَّا أن تثير الإعجاب حتّى لدى الذين يكرهون العرب من الفرنسيِّين.

وبعد فترة، انتقلت علاقتي بها إلى مرحلة أعتبرها حاسمة؛ إذ اتَّخذت فيها قرارًا لست نادمًا عليه. لم أعد أناديها حين أتحدَّث إليها بـ «مدام منصور» كأغلب سكَّان العمارة، وإنَّما زهرة، تمامًا مثلما تفعل مدام ألبير أحيانًا. وهي الوحيدة في العمارة على حدّ علمي التي تناديها باسمها الأوَّل. وقد عرفت هذا لأنَّها تسألني في بعض الأحيان، عندما نلتقي بالصدفة في الطابق الأوَّل أو في مدخل العمارة، عمَّا إذا كنت قد رأيتها.

وطبعًا سألت زهرة عمَّا إذا كانت تسمح لي بذلك، فأبدت موافقتها على الفور، بل إنَّها شكرتني. ولم أكتف بهذا، بل طلبت منها أن تناديني هي أيضًا في المستقبل باسمي الأوَّل إن كان هذا

لا يسبِّب لها حرجًا. كمال، بدلًا من اسمي العائليّ «مسيو عاشور» أو «سي عاشور». ابتسمَت ولم تقل شيئًا. لكنَّها ظلَّت تناديني باسمي العائليّ. كان واضحًا أنّها لا تجرؤ على ذلك.

كنت أعلم أنَّ مناداة الخدم بأسمائهم الأولى هي رفع للكلفة وإزالة للمسافة التي من المفترض ـ بل من المستحسن ـ أن توجد بين الخدم والمخدومين. وهذا قد يشجِّع الخدم على التصرُّف على نحوٍ غير لائق وتجاوز حدودهم، بل قد يؤدِّي أحيانًا إلى ما هو أسوأ. صحيح إنَّ زهرة لا تعمل في بيتي، بل في بيت مدام ألبير، ولكنّ هذا لا يغيِّر في الأمر شيئًا. فزهرة خادمة في نهاية المطاف، والجميع في العمارة يعرف هذا. ومع ذلك، اتَّخذت قراري تقديرًا لها، ليس لأنَّها تونسيَّة فحسب، وإنَّما أيضًا لأنَّها امرأة تستحقّ ذلك.

ولم أتوقَّف عند هذا الحدّ، فقد انتهزت ذات يوم فرصة انسجام رائعة بيني وبين بريجيت، واقترحت عليها بعد تمهيد طويل أن تفعل مثلي. بيد أنَّها رفضت فورًا، مستغربة أن أطلب منها شيئًا كهذا. ليس باستطاعتي أن أنادي شخصًا لا أعرفه معرفة عميقة ولا تربطني به أيَّ علاقة حميميَّة باسمه الأوَّل. قالت لي لتبرير ذلك. إنّ التقاليد الفرنسيَّة التي تربَّيت عليها لا تسمح بهذا، بل إنَّها ترى فيه عدم احترام لهذا الشخص. ولم تغيِّر موقفها حين ذكَّرتها بأنَّ زهرة ليست فرنسيَّة، وأنَّ التقاليد العربيَّة في هذه المسألة هي عكس التَّقاليد الفرنسيَّة تمامًا. «أذكِّرك بأنَّنا لسنا في تونس أو المغرب، وإنَّما في فرنسا»، قالت لي بشيء من البرود.

منذ اللَّحظات الأولى التي كلَّمتني فيها زهرة بالعربيَّة، أدركت أنَّها من الجنوب، فأنا أعرف جيِّدًا لهجة سكَّان الجنوب، لأنَّ الكثير من الذين يديرون محلَّات البقالة والمخابز في الحيّ الذي كنتُ أُقيم فيه هم من هذه المنطقة. لم أكن أتردَّد على هذه المحلَّات والمخابز؛ لا لأنَّني أعتقد أنَّ بعض العرب يغشُّون في الأسعار فحسب، وإنَّما أيضًا لأنَّ بريجيت ترى أنَّها غير نظيفة كما ينبغي وتفتقر إلى شروط الصِّحّة. ومع ذلك، أشتري منها أحيانًا بعض الحلويات الشرقيَّة. وبالطبع لا آكلها في البيت وإنَّما في الشارع، خوفًا من انتقادات بريجيت.

ولم يعد حديثنا يقتصر كما في الشهور الأولى على تقلُّبات الطقس في باريس، أو الأوقات التي يمرّ فيها ساعي البريد، أو تزايد عدد موزِّعي الإعلانات التي نجدها في صناديقنا البريديَّة كلَّ يوم. صرنا نخوض أثناء لقاءاتنا التي لا تدوم سوى بضع دقائق في مسائل مختلفة؛ العمل، والبطالة، وغلاء المعيشة، والأمراض، والضمان الصحّيّ، والنقل في باريس، وخاصَّة أخبار تونس ومباهج

عطلة الصيف التي تقضيها هناك مع أهلها، وتصرُّفات البوليس السَّيِّئة في مطار قرطاج، ومضايقات ضبَّاط الجمارك في ميناء حلق الوادي. لا تحدِّثني أبدًا عن زوجها أو ابنها. وأنا لا أسألها أبدًا عنهما. في الحقيقة، لم أكن أشعر برغبة كبيرة في معرفة أخبارهما وإن كنت أحترمهما. كأنَّ كلَّ ما يهمُّني في هذه العائلة التونسيَّة هو زهرة.

أحيانًا أستغلّ تهذيبها ولطفها واستعدادها الدَّائم لتبادل الحديث معي، فأطرح عليها أسئلة مختلفة بدافع الفضول؛ فأنا ألتقي لأوَّل مرَّة امرأة مهاجرة يمكنني أن أتحدَّث معها. هناك بالطبع نساء تونسيَّات كثيرات هاجرن مع أزواجهنَّ، أراهنَّ كلَّ يوم وفي كلِّ مكان في المحلَّات التِّجاريَّة والحدائق والشوارع ومحطَّات المترو، لكن من الصعب التَّحدُّث إليهنَّ، فأنا لا أعرفهنَّ وهنَّ لا يبدين أيّ استعداد لذلك.

إنَّ الحديث مع امرأة عربيَّة لا تعرفها يسبِّب في أغلب الأحيان مشاكل لها ولك. ذات يوم، بينما كنت في المترو، رأيت مراهقًا فرنسيًّا يبدو من شكله أنَّه تلميذ يسأل امرأة محجَّبة جالسة قبالته عن الساعة. لم تجبه. وتفاجأت بأنَّ الرجل الجالس بجوارها، وكان جزائريًّا كما علمت من طريقته في نطق الفرنسيَّة، يوبِّخ الشاب مذكِّرًا إيَّاه بأنَّه لا يجوز الحديث مع امرأة لا يعرفها ولا تربطه بها أيَّ علاقة قرابة!

أعترف بأنَّ الدافع للحديث مع زهرة ليس الفضول فقط، وإنَّما أيضًا شيء آخر. شيء كنت أحسّ به في البداية غامضًا ولم أكن قادرًا على تحديده. لكنَّ شيئًا فشيئًا، تمكَّنت من توضيحه، وهو حنين ما لديَّ إلى المرأة العربيَّة. لقد تزوَّجت مرَّة واحدة في حياتي. والمرأة التي تزوَّجت منها فرنسيَّة. ولم يسبق لي أن عاشرت امرأة عربيَّة إلَّا طالبات لفترات قصيرة عندما كنت أدرس في الجامعة في تونس قبل أن أهاجر. ويبدو أنِّي صرت الآن، وأنا في هذا العمر المتقدِّم، أحنّ إلى عالم المرأة العربيَّة. والواقع أنَّني لا أعرف هذا العالم كما ينبغي. بل يمكنني أن أقول إنِّي أجهله إلى حدّ بعيد. ولعلَّ شعوري بأنِّي مقصيّ منه منذ أن غادرت تونس وأقمت في فرنسا، وخصوصًا منذ أن تزوَّجت من بريجيت، هو الذي يجعلني أحنّ إليه وأنا في هذا العمر. إنَّ رغبتي في التَّحدُّث إلى زهرة هي بمعنى ما محاولة لدخول هذا العالم للتَّعرُّف عليه وكشف ما يمكن أن يحتويه من أسرار.

مع زهرة، بدأت أيضًا أشعر من جديد بمتعة التَّحدُّث بالعربيَّة، وتحديدًا باللَّهجة التونسيَّة. في تلك الفترة، كنت أتكلَّم الفرنسيَّة في أغلب الأوقات، وكنت فخورًا بأنِّي أتقنها. وأكثر ما كنت أعتزّ به

هو أنِّي أتكلَّمها بالطريقة التي يتكلَّمها بها الفرنسيُّون.

بريجيت أيضًا فخورة بذلك، فهي ترى أنَّ الفرنسيَّة لغة صعبة بالنِّسبة إلى الأجانب، وأنَّ الكثيرين منهم يتكلَّمونها بلكنة قويَّة.

إلَّا أنَّني لم أتخلّ عن اللُّغة العربيَّة، ولم يخطر ببالي أبدًا أن أفعل هذا. بالعكس، كنت شديد الحرص على أن أظلّ على علاقة بها. كنت أؤمن بأنَّ اللُّغة العربيَّة هي أحدُ الأشياء القليلة التي لا تزال تربطني بالعالم الذي أتيت منه. كنتُ أجدُها جميلة وحيَّة، خلافًا لما يعتقده بعض التونسيِّين. كانوا يردِّدون إنَّ العربيَّة لغة ميِّتة ولا مكان لها في عالمنا الحديث؛ عالم العلوم والتكنولوجيا. وازداد إعجابي بها عندما قرأت صفحات قليلة من كتب في الرياضيَّات والفيزياء بالعربيَّة، مثل «حساب الجبر والمقابلة» للخوارزميّ و«الجماهر في معرفة الجواهر» للبيرونيّ، وقعت عليها بالصدفة في مواقع في الإنترنت. صار تعلُّقي بها قويًّا إلى درجة أنَّني بدأت أطالع بها روايات عربيَّة حين اكتشفت قيمة المطالعة. لكنَّ القراءة شيء، والحديث خاصَّة بالتونسيَّة شيء آخر.

كنت أشعر برغبة جامحة في نطق الحروف وسماع أصواتها تخرج من فمي. وقد كنت أفعل هذا بين الحين والآخر حين أكون وحدي في الحمّام أو المرحاض أو المطبخ. ذات مرَّة، نسيت أنَّ بريجيت في الصالون وتخيَّلت أنَّني برفقة تونسيّ من أصدقائي القدماء، وأنِّي أتحدَّث إليه في موضوع مهمّ. تحمَّست وارتفع صوتي من دون أن أنتبه، فسمعتني بريجيت. هل صرتَ تُكلِّم نفسك الآن؟ سألتني باستغراب. أنصحك بأن تقول هذا لطبيبك في المرَّة القادمة، فربَّما هذا علامة من علامات الخرف!

انتبهتُ إلى أنَّ زهرة تحسّ هي أيضًا بمتعة عندما تتكلَّم معي باللَّهجة التونسيَّة. لكن ليس لأنَّها محرومة من ذلك مثلي ـ إذ إنَّها تتكلَّم هذه اللَّهجة كلَّ يوم مع زوجها وابنها ـ وإنَّما لأنَّها تحسّ كما استنتجت أنَّ ذلك يروق لي ويشيع في نفسي الابتهاج.

أظنّ أنَّ متعتها هذه تعود أيضًا إلى أنَّها تفعل هذا مع تونسيّ لم تتعوّد التَّحدُّث معه. أستاذ في الجامعة، ومتزوّج من فرنسيَّة، ويحترمها ويستمع إلى ما تقوله باهتمام. ويبدو أنَّ هذا يبعث في نفسها شيئًا من الفخر والاعتزاز. وكنت أرتاح لكوني سبب هذه الأحاسيس.

– 3 –

حالما فتحت باب شقَّتي للخروج، شاهدت زهرة. كانت واقفة أمام شقَّة مدام ألبير في انتظار أن تفتح لها الباب.

استدارت صوبي، فغزتني رائحة خمَّنت أنَّها رائحة إبطَيْها. كانت قويَّة لكنَّها غير كريهة. تراجعت قليلًا حين مالت عليّ لتحيَّتي. لو لم أفعل ذلك، لربَّما لامست ذراعي ذراعها.

كان الفصل صيفًا. ضوء الشمس ساطع. والحرارة لاهبة كما يحدث أحيانًا في بعض أيَّام الصيف في باريس. كان ترتدي بلوزة من كتَّان أبيض رقيق وشفَّاف بكمَّيْن قصيرَيْن يكشفان عن زنديْها. وكانت ضيّقة تبرز تكوُّم نهدَيْها. لأوَّل مرَّة أراهما بمثل هذا الوضوح وعن قرب. خيِّل إليَّ أنَّ ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتَيْها حين وقعت عيناي بالصدفة على صدرها.

لقد سبق أن لاحظت أنَّ زهرة ظلَّت تحتفظ بشيء من الجاذبيَّة. جسدها لم يترهَّل بالرَّغم من أنَّها في الخمسين من عمرها. ويعود هذا على الأرجح إلى أنَّها كثيرة الحركة والنشاط بحكم عملها في البيوت. لكن لم أركِّز أبدًا بصري على وجهها أو أيّ جزء من جسدها. منذ أن بدأت أهتمّ بها، لم أنظر إليها أبدًا كأنثى يمكنها أن تجتذب الرجال، كما أفعل أحيانًا مع بعض النِّساء، وإنَّما كجارة تونسيَّة أحترمها وأتصرَّف معها بأدب.

وعلى أيّ حال، كنت دائمًا أتعامل باحترام مع كلّ جيراني، القريبون منهم والبعيدون، والفرنسيُّون والأجانب. منذ زمن بعيد، تكوَّنت لديَّ نظريَّة عن الجيران أحاول قدر الإمكان أن ألتزم بها، وهي تقوم أساسًا على فكرة أنّهُ لا أحد يختار جاره عمومًا. المصادفات هي التي تفعل ذلك.

وبما أنَّنا نعيش مع الجار سنوات عديدة من عمرنا، وربَّما كلّ ما تبقَّى لنا من هذا العمر، فمن الغباء معاداته أو التصرُّف معه على نحوٍ فظّ. والحكمة تقتضي احترامه، بل نسج علاقة ودّ معه. وإن لم تفعل ذلك، فإن باستطاعة جارك أن يُحوّل حياتك إلى جحيم إن أراد. وقد عشت شيئًا شبيهًا بهذا في تونس قبل أن أنتقل إلى الإقامة في باريس.

ما حدث بيني وبين زهرة في ذلك اليوم الصيفيّ القائظ، في تلك المساحة الضيِّقة الواقعة بين بابَيْ شقَّتي وشقَّة مدام ألبير، شكَّل تحوُّلًا في علاقتي بها. في البداية لم أعره أيّ اهتمام، فمثل هذه الأمور كثيرًا ما تحدث بين الجيران. وهي لا تعني شيئًا في آخر الأمر. لكن ما فاجأني في أوَّل لقاء لنا بعد هذه الحادثة، أنَّ زهرة تغيَّرت. رأيت في عينَيْها ما جعلني أفهم أنَّ نظرتي العابرة إلى صدرها تركت أثرًا في نفسها، وأنَّ شيئًا ما في داخلها تحرَّك. والدَّليل أنَّها لم تتصرَّف معي كالعادة.

صحيح أنَّها حيَّتني بحرارتها المعهودة، وأنَّنا تحدَّثنا لبضع دقائق في المواضيع المعتادة، لكنَّها كانت مرتبكة. وكانت تتحاشى النَّظر إلى وجهي. وفورًا، انتقلت إليَّ عدوى الارتباك. ومنذ تلك اللَّحظة، لم نعد كما كنَّا.

عجيب!.. كم هي هشَّة وملتبسة ومتقلِّبة علاقة الذكر بالأنثى!.. وهي رهينة أمور بسيطة، بل تافهة. أحيانًا، تكفي نظرة عابرة أو حركة تلقائيَّة أو ضحكة أو ابتسامة أو حتّى رائحة ما لإحداث تحوُّلٍ في هذه العلاقة، فتتَّخذ منحى لم يكن يخطر ببالنا إطلاقًا.

منذ لقائنا في ذلك اليوم الصيفيّ، صار بيني وبين زهرة ما يمكن أن نسمِّيه انجذابًا. بيد أنَّ الأخطر من ذلك أنَّ هذا الانجذاب لم يتوقَّف كما كنت أتصوَّر، وإنَّما تواصل، بل وتطوَّر، بعد بضعة أسابيع إلى لعبة إغواء!

أصابني الذهول وانتابني خجل شديد. ما هذا يا سي كمال؟! أنت أستاذ رياضيَّات في الجامعة، كنت أردِّد في نفسي. لم أكن أتصوَّر أنَّ أحاسيس من هذا النوع ستراودني يومًا، وخاصَّة أنَّني سأستسلم لها بمثل هذه السُّهولة. فأنا في الستِّين من عمري، وعلاقتي بزوجتي التي لها العمر نفسه تقريبًا ممتازة. ثمّ إنَّني ما زلت أحبُّها وهي أيضًا ما زالت تحبُّني، وإن كان هذا الحبّ يتَّخذ أشكالًا مختلفة كلَّما تقدَّمنا في العمر والتجربة. لم أكن أتصوَّر أيضًا أنَّ زهرة المهذَّبة ستنقاد بسرعة إلى مثل هذه اللُّعبة الخطرة.

وما فاقم ذهولي وخجلي هو نوع المرأة التي أثارت في نفسي مثل هذه الأحاسيس. لم أكن أنتظر أن يحدث لي هذا مع جارة لي. وأيَّ جارة؟! تونسيَّة، ومتزوّجة، وفي الخمسين من عمرها، وفوق كلّ هذا، خادمة في البيوت وتحديدًا في بيت مدام ألبير الذي يقع مقابل بيتي؟! يا إلهي.. أيَّ صدفة عجيبة هذه! ثمّ أيّ شيطان رجيم وسوس لي هذا وأوقعني في هذه الورطة!

لم يسبق أن عاشرت أو ربطت علاقة ولو عابرة بامرأة بعيدة عن وسطي. عندما كنت طالبًا في تونس أو في باريس، كنت لا أخالط إلَّا الطالبات. وبعد أن تخرَّجت وبدأت أعمل أستاذًا في المدارس الثانويَّة ثمّ الجامعة، كانت كلّ العلاقات التي نسجتها قبل تعرُّفي على بريجيت مع مدرِّسات. لأوَّل مرَّة، أنجذب إلى امرأة لا يربطني بها أيّ شيء ظاهريًّا سوى أنَّها تونسيَّة وأنَّها تعيش في باريس مثلي.

فوجئت حين تبيَّن لي بعد أن أفلحت في تجاوز مرحلة الذهول والخجل أنَّ هذه الأحاسيس توفِّر لي متعة لم أشعر بها منذ زمن طويل. وكانت هذه المتعة، مع كلّ ما يرافقها، تشحنني بطاقة ظننت أنَّني لم أعد قادرًا عليها في تلك السنّ. كأنَّ دماء جديدة ضُخَّت في عروقي.

بالطبع، لم أكن مستعدًّا نفسيًّا لأخوض أيَّ مغامرة عاطفيَّة جديدة مع أيّ امرأة وأنا في هذه السنّ. ثمّ إنَّني كنت أرفض فكرة المغامرة أصلًا. لكن لا بدَّ أن أعترف أنَّ ما حدث لي مع زهرة شيء رائع لذيذ لم أذق طعمه منذ فترة طويلة.

لم أجد صعوبة كبيرة في تقبُّل حالة الانجذاب إلى زهرة التي ألفيت نفسي فيها. وما العيب في أن ينجذب الرجل إلى امرأة من وسط اجتماعيّ يختلف عن وسطه؟ ثمّ ما المشكلة في أنَّ هذه المرأة خادمة في البيوت؟ ما المشكلة في أنَّها تونسيَّة مثلي ومتزوّجة من رجل غريب الأطوار ومتقاعد، ولها ابن يعاني من إعاقة وعاطل عن العمل؟ أمَّا أنَّها تُقيم في العمارة نفسها التي أقيم فيها، فهذا لا يسبِّب لي أيّ إحراج. بالعكس، يساعدني على أن أبرّر لنفسي هذا الانجذاب، فرؤية امرأة عدَّة مرَّات في اليوم، من شأنها أن تدفع إلى الاهتمام بها وربَّما الانجذاب إليها.

ما كان يزعجني حقًّا هو لعبة الإغواء التي وقعت في فخِّها بسهولة محيِّرة. في البداية، كنت أتألَّم كثيرًا لذلك. كنت أشعر بوخز الضمير. كنت أحسّ أنَّني أسيء بصورة ما إلى بريجيت بهذا

السُّلوك. ثمّ إنَّه لا يليق برجل في عمري ومقامي وثقافتي أن ينساق لمثل هذه الأمور كأنَّه مراهق. لكنَّ إحساسي بالألم تناقص كثيرًا حتّى كاد يتلاشى عندما أفلحت في إقناع نفسي بأنَّها مجرَّد لعبة.

وما زاد في طمأنتي، هو أنَّه تبيَّن لي فيما بعد، أنَّ اللُّعبة لم تستهوني إلى حدّ الانبهار بها، وهو ما كنت أخشاه. اكتشفتُ أنَّ لديَّ من الإرادة والعزيمة ما يجعلني أخرج منها في أيّ وقت أشاء.

والأهمّ من كلّ ذلك، هو أنَّني كنت موقنًا من أنِّي أنا الذي أقود هذه اللُّعبة وأتحكَّم فيها، مستفيدًا في ذلك من مكانتي الاجتماعيَّة ومقامي وسنّي وثقافتي وحالتي المادِّيَّة. ميزان القوى لا يمكن أن يكون إلَّا لصالحي، وليست زهرة امرأة فضائح. فلم الخوف إذن؟

بدأت لعبة الإغواء بأمور صغيرة. نظراتها لي لمّا نلتقي في مدخل العمارة أو أمام الصناديق البريديَّة ونكون وحدنا. حركات يدَيْها. مشيتها. طريقة نطقها للكلمات حين تحيِّيني. ارتعاشة شفتَيْها. صوتها وتلويناته عندما تطرح عليَّ سؤالًا. كانت تتصرَّف بخفر واحتشام شديدَيْن. تحاول أن تكون تلقائيَّة قدر المستطاع. لكنِّي كنتُ على يقين من أنَّها كانت تدري ماذا تفعل، وتعرف أنَّني أنتبه لكلّ هذه الأمور الصَّغيرة.

وبعد فترة، تطوَّرت اللُّعبة وصارت تشمل الثياب. بالطبع، زهرة تعتني بمظهرها الخارجيّ. وكانت دائمًا ترتدي ثيابًا نظيفة محترمة. بَيْد أنَّ ما لاحظته هو أنَّها صارت ترتدي في بعض الأحيان ملابس أكثر أنثويَّة، أو هكذا تبدو لي. ملابس تُبرِز إلى حدٍّ ما بعض ما تبقَّى من مفاتن في جسدها. هذا أيضًا تفعله باحتشام وذكاء. لا بدَّ أن يركِّز المرء عليها بصره كي ينتبه إلى ذلك. وكنت واثقًا من أنَّها تفعل هذا لي. لي أنا ولا لأحد آخر غيري.

هناك تغيُّر لم أكن أنتظره منها، بل يمكن القول إنَّه صدمني، وهو أنَّها صارت تعتني بوجهها. لا أذكر أنِّي رأيت زهرة وعلى وجهها مكياج يومًا ما. ولم أكن أتصوَّر أنَّ ذلك ممكن أصلًا، لأنَّ النساء العربيَّات اللَّاتي في عمرها لا يفعلن هذا في العادة. الآن، صارت تزجِّج حاجبيْها وتكحِّل عينَيْها، بل وتضع قليلًا من الأحمر على شفتَيْها. ومن المحتمل جدًّا أنَّها تدهن بشرتها بكريم تجميل.

أنا من الرجال الذين يحبُّون الماكياج لدى النِّساء. لا أقصد بالطبع الماكياج المفرط الذي نراه لدى الكثير من النِّساء اللاتي يبدين كما لو أنَّهنّ يضعن أقنعة على وجوههنّ عندما يتبرَّجن، وإنَّما

الماكياج الخفيف الذي يزيد المرأة جمالًا.

وبريجيت تعرف هذا جيّدًا. المشكلة أنَّها لا تحبّ التبرُّج. إنَّها ترى أنَّ جمال المرأة الطبيعيّ كافٍ. ثمّ إنَّها لا تتحمَّل أن تطلي وجهها بمساحيق تحتوي على موادّ كيمائيَّة مضرَّة بالبشرة. وبالرَّغم من ذلك، فهي تقبل أن تضع ماكياجًا خفيفًا بين الحين والآخر، في الأعراس وأعياد الميلاد، أو عندما نخرج للعشاء في مطعم، أو للذهاب للسينما أو الأوبرا، وأحيانًا عندما تكون سعيدة أو فرحة بي لسبب ما.

وقد اكتشفت فيما بعد أنَّ زهرة لا ترتدي الثياب التي تبرز مفاتنها أو تضع الماكياج إلَّا في أوقات قليلة ومحدَّدة، وهي التي تذهب فيها إلى شقَّة مدام ألبير، وتكون هناك بالتالي إمكانيَّة للالتقاء بي في اللَّحظات التي أخرج فيها من شقَّتي أو أدلف إليها، ممَّا يرسِّخ اعتقادي بأنَّها تفعل كلّ هذا لأجلي. لم أشاهدها أبدًا بماكياج أو في ثياب مثيرة في مدخل العمارة أو أمام علب البريد أو في مكان حاويات النفايات.

كانت تعرف على ما يبدو الأوقات التي لا أشتغل فيها وأكون فيها وحدي في البيت. ومن المحتمل جدًّا أنَّها تعلم أنَّ بريجيت موظَّفة في بنك، وأنَّ لها ككلّ الموظَّفين أوقات دوام منتظمة، وأنَّها تغادر البيت في الصباح ولا تعود إلَّا في المساء. وبعد أيَّام قليلة من انخراطنا في لعبة الإغواء، لاحظت أنَّها صارت تطرق باب شقَّة مدام ألبير بقوَّة حين تأتي لخدمتها. كانت تستغلّ طرش مدام ألبير الذي يتفاقم كلَّما تقدَّمت في السنّ للفت انتباهي إلى وجودها أمام شقَّتي كي أخرج فأراها أو كي أتلصَّص عليها من خلال الثقب الصَّغير الذي يوجد في باب شقَّتي. في عمارات باريس، يوجد في باب كلّ شقَّة ثقب يمكن من خلاله معرفة الزائر الذي يطرق بابنا من دون أن نفتحه. ومن المحتمل جدًّا أنَّ البعض مثلي يستعملونه لمجرَّد التلصُّص على جيرانهم.

وكي لا أخلط بينها وبين سعاة البريد المسجَّل، أو موظَّفي شركة الكهرباء والغاز، أو مصلحي أجهزة التلفزيون الذين يتردَّدون على العمارة، أصبحَت تدقّ الباب ثلاث دقَّات غير مسترسلة. اثنتان. وبعد لحظة قصيرة، ثالثة. شيئًا فشيئًا، صارت بيننا إشارات للتفاهم من دون أيّ اتِّفاق مسبق. ومع ذلك، حافظ كلّ واحد منَّا على تماسكه وهدوئه، وظللنا نتصرَّف كما لو أنَّ كلّ هذا يحدث بالصدفة.

وهذا التغيُّر لم يطرأ عليها هي فقط، وإنَّما شملني أنا أيضًا. صرت أهتمّ بأمور كنت أهملها وشرعت في القيام بأشياء لم أكن أقوم بها بتاتًا. عندما أنزل لجلب البريد أو لوضع القمامة في الحاويات مثلًا، أصبحت أنظر إلى وجهي في المرآة قبل أن أخرج للتأكُّد من أنَّ شعري ممشوط كما ينبغي. أنظِّف أنفي جيّدًا. أرتدي ثيابًا أجمل من تلك كنت أرتديها داخل البيت. أضع نظَّاراتي الطبّيَّة ذات الإطار المعدنيّ التي تقول بريجيت أنَّها تناسب شكل وجهي ولون بشرتي، فأبدو أجمل وخاصَّة أصغر سنًّا، وهذا ما كنت أشكّ فيه دائمًا.

وفي بعض الأحيان، أتعطَّر مرَّة أخرى بعد أن أكون قد فعلت ذلك أثناء الاغتسال. وفي الحقيقة، أنا حريص على أن أتعطَّر صباح كلَّ يوم، فأنا أحبّ العطر كثيرًا، لا لأنَّ رائحته تعجبني فحسب، وإنَّما لأنَّه يحسِّن مزاجي الذي يكون متعكِّرًا عادة بعد الاستيقاظ ويمنحني إحساسًا قوِيًّا بالثقة بنفسي أيضًا.

وبريجيت هي التي تختار عطري وتشتريه لي، فأنا أثق تمامًا في ذوقها. لم أر في حياتي رجلًا يحبّ العطر مثلك، تقول لي باستغراب، عندما تلاحظ أنَّ قنِّينة العطر التي أهدتني إيَّاها قبل شهر بدأت تنفد.. ماذا تفعل بالعطر؟.. هل تشربه؟

الطريف أنَّه في تلك الفترة فقط اكتشفت أنَّ هناك عيبَيْن في وجهي. الأوَّل هو أنَّ ذقني تبدو صغيرة مقارنة بحجم وجهي المستطيل ينقصها نصف سنتمتر من الطول تقريبًا لتكون مناسبة. أمَّا الثاني، فهو أنَّ حاجبي الأيسر أصغر من حاجبي الأيمن. لم أنتبه إلى هذَيْن العيبَيْن أبدًا من قبل. وحتّى بريجيت التي تعرف وجهي بكلّ تفاصيله لم تُبدِ لي أبدًا أيَّ ملاحظة لا عن ذقني ولا عن حاجبي الأيسر.

كان لا بدَّ أن أنخرط في لعبة إغواء مع جارة خادمة في البيوت كي أكتشف هذا!

– 4 –

كنت وحدي في البيت في ذلك الصباح. لم أكن أنتظر أحدًا. فجأة، سمعت طرقًا خفيفًا على بابي. فتحته، ففوجئت بزهرة منتصبة أمامه.

ـ صباح الخير سي عاشور.. ومعذرة عن الإزعاج..

وقبل أن أنطق بأيِّ كلمة، سألتني:

ـ هل رأيت مدام ألبير هذا الصباح؟

تراجعَت قليلًا برأسها حين انتبهت إلى أنَّها قريبة جدًّا منِّي. كانت تحمل في يدها اليمنى سطلًا صغيرًا به خرقة وإسفنجة وزجاجات تحتوي على موادّ للتَّنظيف. شعرها غير ممشوط بعناية خلافًا للعادة. ولم يكن على وجهها أيّ أثر للماكياج باستثناء قليل من الكحل في عينَيْها، لم أتبيَّنه إلَّا فيما بعد. كانت متعبة كما لو أنَّها لم تنم جيِّدًا البارحة. أمَّا ثيابها، فهي عادية لا تُبرِز أيّ شيء ممَّا بقي من مفاتن جسدها. بدت لي آنذاك مثل أيّ خادمة بيوت تنتظر سيِّدتها لخدمتها. وبالرَّغم من كلّ هذا، وحالما وقعت عيناي عليها، ساورتني تلك الأحاسيس التي صارت تنتابني كلَّما رأيتها منذ أن بدأنا لعبة الإغواء.

ـ لا.. لم أرها.. لم أخرج من بيتي هذا الصباح..

أجبتها بلهجة حاولت أن تكون محايدة كي أخفي أحاسيسي واضطرابي. لكن لا بدّ أنَّ صوتي خانني، فقد ارتسمت على شفتَيْها ابتسامة خفيفة. أضفت:

ـ لعلَّها نائمة..

ـ لا.. إنَّها تستيقظ باكرًا.. كنت معها في بيتها.. طلبت منِّي أن أتركها لوحدها.. وأن أعود بعد ساعة.. ولمّا عدت وطرقت الباب لم تفتح..

لم أسمع شيئًا من هذا الطَّرق. لا شكَّ أنَّ هذا حدث أثناء اللَّحظات الطويلة التي أمضيتها في المطبخ. كنت منهمكًا في غسل فناجين القهوة والصحون والملاعق والسكاكين التي استعملناها أنا وبريجيت أثناء تناول فطور الصباح. في كلّ الأيَّام التي لا أشتغل فيها في الصباح، أفعل ذلك. بريجيت تغادر الشقَّة للتوجُّه إلى مقرّ عملها حالما ننتهي من تناول الفطور.

تترك كلّ شيء على حاله، بينما أنظِّفُ أنا الطاولة، وأحمل الفناجين إلى المطبخ وأغسلها. أقوم بأشغال أخرى مثل ترتيب الفراش وفتح نوافذ الغرف للتهوية ونفض الغبار عن الأثاث وكنس أرضيَّة الصالون. وهذا لا يضايقني إطلاقًا. بالعكس، أشعر بمتعة في القيام بذلك.

ـ ربَّما لم تسمع الطرق..

ـ أعرف أنَّ طرشها قد تفاقم في الأعوام الأخيرة.. لكنَّها في العادة، تسمع الطرق.. شكرًا على أيِّ حال.. لا بدَّ أنَّها مشغولة بأمرٍ ما.. وربَّما تخابر شخصًا ما ولا تريد أن أسمع ما تقوله.. سأعود إليها بعد قليل..

وفي اللَّحظة التي كنت أتصوَّر فيها أنَّها ستنصرف، فوجئت بها تمدّ عنقها وتتطلَّع إلى داخل شقَّتي. كان بابها مفتوحًا تمامًا. وكان باستطاعتها أن ترى جزءًا مهمًا من الصالون. سألتني بتعجُّب وهي تشير إلى مكتبتي:

ـ كلّ هذه الكتب لك؟

آخر شيء كنت أنتظر أن تسألني عنه هو الكتب. كنت أتصوَّر أنَّ ما سيلفت انتباهها هو الأثاث والمرآة الضخمة على الجدار التي تعلو المدفأة، لأنَّ جميع الذين يدخلون شقَّتنا كانوا يتطلَّعون إليها باهتمام.

ـ نعم.

وبعد لحظة، تذكَّرت أنَّ جزءًا مهمًّا منها لبريجيت المولعة بقراءة الرواية البوليسيَّة، فقلت مستدركًا:

ـ كلّ الكتب العربيَّة لي.. وجزء من الكتب الفرنسيَّة لزوجتي..

ـ أحبّ الكتب العربيَّة..

قالت وهي لا تزال تنظر إلى داخل الشقَّة. ثمّ أضافت بحماس كما لو أنَّها تريد تأكيد ذلك:

ـ أحبُّها كثيرًا..

لاحظتُ آنذاك أنَّها صبغت شعرها حديثًا. من الواضح أنَّها لم تذهب إلى صالون حلاقة وأنَّها فعلت ذلك في بيتها. عمليَّة الصباغة لم تكن جيِّدة على ما يبدو، فقد ظلَّت أجزاء من بعض الشعرات بيضاء، كما أنَّ الصباغة كانت في بعض المواضع أقوى وداكنة أكثر.

ـ هل يمكن أن أراها عن قرب؟

تردَّدتُ قليلًا قبل أن أسمح لها بالدخول. تساءلتُ عمَّا إذا كان يجب أن أغلق الباب عندما صارت في الصالون. إنَّ إغلاق الباب حين تكون مع امرأة قد يعني لها أنَّك تريد أن تختلي بها. وهذا الاختلاء في حدّ ذاته قد يكون إشارة لما يمكن أن يحدث بين ذكر وأنثى في مكان مغلق. وخوفًا من أن ينشأ أيّ سوء تفاهم بيني وبينها ـ وإن كنت أستبعد ذلك ـ تركت الباب مفتوحًا.

كنت موقنًا من أنَّ طلبها لرؤية الكتب عن قرب ليس ذريعة للدُّخول إلى بيتي بدافع الفضول والتلصُّص أو تمهيدًا لأيّ شيء آخر. وازددت تأكُّدًا من ذلك عندما عبرت الصالون بسرعة بعد أن وضعت سطلها أمام باب شقَّة مدام ألبير وتوجَّهت رأسًا إلى الرفوف التي تصطفّ عليها الكتب. ثمّ راحت تحدِّق فيها كمن يرى كتبًا لأوَّل مرَّة. وحين التحقت بها، قالت:

ـ كم هي كثيرة!

سألتني بعد لحظة:

ـ هل قرأت كلّ هذه الكتب؟

ـ لا.. قرأت بعضها..

ـ بعضها فقط؟

ـ نعم..

ـ ولماذا اشتريتها إذن؟

ـ لأقرأها طبعًا.. لكن لا يمكن أن أقرأ كلّ شيء دفعة واحدة..

حرَّكت رأسها من دون اقتناع بما قلت، وعادت تنظر إلى الكتب العربيَّة. سألتني وهي تمدّ يدها نحو رواية «عرس الزين» للطيِّب صالح:

ـ هل يمكن أن أمسك به؟

هززتُ رأسي بالإيجاب. أخذت تتطلَّع إلى صورة الغلاف. كانت لديَّ روايات عربيَّة. اشتريتها وقرأت بعضها بعد أن سألني أحد زملائي الفرنسيِّين عن الأدب العربيّ. كنت أعرف عددًا من الكتَّاب العرب، لكنّني لم أقرأ لهم سوى نصوص مختارة في الكتب المدرسيَّة المقرَّرة في الثانويَّة. نادرًا ما كنتُ أطالع. ومعظم التلاميذ كانوا مثلي. وبعد دخولي الجامعة وتخصُّصي في مادَّة الرياضيَّات، توقَّفت تمامًا عن المطالعة. كنَّا نعتقد في كليَّات العلوم والهندسة والطبّ أنَّ الأدب هو من شأن طلَّاب شعبة الآداب فقط، وأنَّ مطالعته لا تعني سواهم. ولكن، لمّا هاجرت وبدأت أخالط الفرنسيِّين، اكتشفت أنَّ الأدب يعني الجميع وأنَّ أصدقائي من الطلَّاب، وفيما بعد زملائي من الأساتذة يحترمون الأدب والأدباء ويطالعون الروايات. وبعد أن تزوَّجت، كانت بريجيت تستغرب عدم اهتمامي بالأدب، وخاصَّة عزوفي عن القراءة. ولهذا شرعت في المطالعة.

ـ الصُّورة حلوة..

ـ آ..

ـ الكاتب هو الذي صوَّرها؟

ـ لا..

ـ من إذن؟

ـ مصوِّر..

ـ ما هو عنوانه؟

ـ «عرس الزين»..

اتَّسعت عيناها من الدَّهشة وسألتني:

ـ الزين!.. الكتاب عن عرس الزين الذي كان رئيسنا؟

ـ لا.. رواية..

ـ رواية!.. ما معنى رواية؟

تذكَّرت أنَّها لم تدخل المدرسة، فقلت لها:

ـ رواية.. أي حكاية..

ـ إذا كانت حكاية.. فلماذا لا تقول حكاية؟

ـ بالعاميَّة نقول حكاية.. لكن بالعربيَّة الفصحى، نقول رواية..

نطقت كلمة «رواية» عدَّة مرَّات كأنَّها تتدرَّب على نطقها. ثمّ سألتني:

ـ الفصحى.. هي هذه التي يتكلَّمونها في الأخبار في التلفزة؟

ـ نعم..

ـ أستمع إليها أحيانًا.. لكنّني لا أفهم منها إلَّا القليل..

تذكَّرت آنذاك النقاش الذي كان في فترة ما يدور بيني وبين بريجيت حول العربيَّة. في البداية، كانت تصغي إلى كلّ ما كنت أقدِّم لها من إجابات عن أسئلتها الدَّقيقة حول العربيَّة. كانت تريد أن تعرف الفرق بين الدارجة والفُصحى. وحين فهمتْ أنَّ الفُصحى يتعلَّمونها في المدارس،

صارت تعارضني عندما أقول لها إنَّ الفصحى هي لغتي الأمّ. كانت تقول لي إنّ اللُّغة الأمّ هي التي يتعلَّمها المرء تلقائيًّا بالسَّماع وليس في المدارس. ولذا، فإنَّ لغتي الأمّ هي العاميَّة التونسيَّة، وليست العربيَّة الفُصحى.

قلَّبت زهرة الكتاب ببطء كأنَّها تخشى أن يتمزَّق أو يندعك. ثمّ فتحته بحذر شديد وأخذت تتصفَّحه دون أن تقول شيئًا. في تلك اللَّحظة، شعرت وأنا أراها منحنية برغبة في مدّ رأسي صوبها والتطلُّع إلى ما يمكن أن يظهر من أعلى نهدَيْها.

انتبهتُ إلى أنَّ بلوزتها عريضة قليلًا عند الصدر. تردَّدت قليلًا. وفي اللَّحظة التي هممت فيها بفعل ذلك استقامت، كما لو أنَّها خمَّنت رغبتي. ابتسمت ابتسامة ماكرة وسألتني:

ـ هل هي صعبة مهنة الأستاذ في الجامعة؟

فكَّرت أن أقول لها إنَّها طرحت عليَّ هذا السُّؤال في بداية علاقتي بها حين علمت أنِّي أستاذ في الجامعة، وإنّي أجبتها. بيد أنِّي لم أفعل.

ـ قليلًا..

ـ ولكن، أستاذ ماذا؟ مدام ألبير قالت لي قبل أيَّام إنَّ كلّ أستاذ يدرِّس شيئًا واحدًا فقط..

ـ أستاذ رياضيَّات.

ـ رياضيَّات!..

ـ آ.. رياضيَّات..

انتبهت آنذاك إلى أنَّها لا تعرف معنى الكلمة، فأضفت:

ـ أستاذ حساب..

ـ آ.. فهمت الآن..

وفيما كنت أتساءل عمَّا إذا كان ممكنًا أن أشرح لها معنى كلمة رياضيَّات، قالت:

ـ أنتم الأساتذة تتكلَّمون بلغة صعبة.. مثل الذين يقدِّمون الأخبار في الإذاعة والتلفزة..

لم أجد ما أقوله لها، فابتسمت. أضافت:

ـ قبل أن أعرفك، لم أكن أتصوَّر أنَّ العرب في فرنسا يمكنهم أن يكونوا أساتذة كبارًا في الجامعة..

ـ هناك عرب في كلِّ المهن..

خطت خطوة صوبي. صار باستطاعتي أن أمسك بيدها بمجرَّد أن أمدّ ذراعي. سرت في جسدي ارتعاشة خفيفة. بيد أنَّني سرعان ما تمالكت نفسي حين أدركت أنَّها لم تفعل ذلك عمدًا وأنَّ اقترابها منِّي كان مجرَّد صدفة. ولكي أحافظ على تماسكي، خطوت خطوة إلى الخلف مبتعدًا عنها. ثمّ قلت:

ـ هناك عرب أطبَّاء.. ومهندسون.. ومحامون في فرنسا..

ـ أعرف أنَّ هناك أطبَّاء.. ابني يعالجه طبيب جزائريّ.. لكن لم أكن أعرف أنَّ هناك أساتذة..

أغلقت الكتاب ومدَّته لي. وفيما كنت أعيده إلى مكانه على الرفّ، تقدَّمت خطوتَيْن صوب النافذة وراحت تنظر إلى الخارج. كانت النافذة تطلّ على باحة تقوم في وسطها شجرة دلب ضخمة. كانت زهرة تدير لي ظهرها. فجأة انحنت قليلًا، فبرزت مؤخّرتها. لا أدري إن كانت قد فعلت ذلك عمدًا. ركَّزتُ بصري عليها. لأوَّل مرَّة أنظر إليها مليًّا. لم تكن كبيرة ومستديرة مثلما كنت أتمنَّى. لكنَّها لا تزال على قدر من التماسك مثل صدرها.

ـ يجب أن أعود إلى شقَّة مدام ألبير..

قالت فجأة وهي تتوجَّه بسرعة صوب الباب.

ـ ربَّما حدث لها مكروه..

تبعتها. وعندما خرجت، بقيت واقفًا في مدخل الشقَّة أنظر إليها. لم أشأ أن أتركها وحدها. وحالما رفعت يدها لتطرق الباب، انفتح وأطلَّت مدام ألبير كما لو أنَّها كانت تنتظرها خلفه. التقطت سطلها ودلفت إلى الشقَّة.

– 5 –

في الفترة التي بدأت فيها لعبة الإغواء مع زهرة، أخذت صحَّة بريجيت تتدهور. أحيانًا، تسعل بشدَّة في الصباح الباكر فتوقظني. لا أتضايق من ذلك حتّى وإن لم أنم جيّدًا. أداعب خصلات شعرها ببطء، أو أمسك بيدها وأضغط قليلًا على أصابعها، أو ألصق جسدي بجسدها كي أعبّر لها عن تعاطفي معها وكي تشعر بأنّني لا أتخلّى عنها في الفترات الصعبة. وبالإضافة إلى السُّعال، صارت تحسّ بوجع في ظهرها لأنَّ عمودها الفقريّ كما قال لها طبيبها لم يَعُد مستقيمًا كما ينبغي، وفي ساقَيْها اللَّتَيْن تنتفخان قليلًا كلَّما ارتفعت درجة الحرارة. وفي بعض الأحيان، تعاني من هبوط في ضغط الدم، فتصاب بإغماء خاصَّة خلال اللَّحظات الأولى التي تعقب يقظتها في الصباح. ومن حسن الحظّ أنَّ هذا الإغماء خفيف ولا يدوم سوى بضع ثوان.

أنا أيضًا أعاني من وجع في الظهر وثقل في الساقيْن. لقد دخلنا المرحلة الأخيرة من العمر. بدأ جسدانا يشيخان، فأخذت الأمراض تحوم حولنا. وما يزيد الأمر تعقيدًا بالنِّسبة إلى بريجيت هو أنَّها سمينة إلى حدٍّ ما. وعلى أيّ حال، لم أكن أرى في هذا عيبًا، بل أعترف أنَّني أحبّ سمنتها. لا أؤمن بمقاييس جمال المرأة الرائجة التي تقوم أساسًا على النحافة. يجب أن تكون المرأة ممتلئة. أحبّ حين أمدّ يدي إلى أيّ موضع من جسدها ألَّا أجد عظامًا، وإنَّما لحمًا طريًّا.

تدهْوُر صحَّة بريجيت هو الذي جعلني أفكِّر لأوَّل مرَّة في زهرة للاستعانة بخدماتها. لقد سبق أن تحدَّثت مع بريجيت في موضوع تكليف خادمة للقيام بأعمال التَّنظيف الأساسيَّة في البيت بين الحين والآخر، فنحن لم نعد نقوى على ذلك، ووضعنا الماديّ يسمح لنا بهذا. لم تتحمَّس للفكرة. لا تريد أن يقتحم غريب عالم بيتها الحميميّ، وخاصَّة كلُّ ما يتعلَّق بغسل الثياب وكيّها وترتيبها في

الخزانة. والحقيقة إنَّ الغسيل ليس مشكلة، فلدينا آلة غسيل. أمَّا الكيّ، فلا يتعبها. ويبدو أنَّها تجد فيه متعة شبيهة بتلك التي أجدها أنا في الكنس.

هذه المرَّة، لم ترفض الفكرة. وما فاجأني هو أنَّها لم تبد أيّ ملاحظة عندما اقترحت عليها أن تكون الخادمة التي سنستعين بها زهرة، بل وافقت فورًا كأنَّ الأمر بديهيّ بالنِّسبة إليها. إنَّها تجد زهرة مهذَّبة ونظيفة ولطيفة وذكيَّة. وقد اكتشفت آنذاك شيئًا لم تقله لي قطّ في السَّابق، وهو أنَّها معجبة بجمالها. إنَّها امرأة جميلة، ولا شكَّ أنَّها كانت فاتنة في شبابها، قالت لي بعد اتِّفاقنا.

تحبُّ بريجيت الجمال العربيّ لدى الرِّجال والنِّساء، ويعجبها لون بشراتهم السَّمراء وعيونهم الواسعة السَّوداء. وفي فترة ما، كلَّما زرنا تونس، كانت لا تتوقَّف أثناء جولاتنا في المدن عن لفت انتباهي إلى وجوه نساء ورجال تجدها على قدر هائل من الجمال. لماذا اخترتَ أن تتزوَّج من فرنسيَّة مثلي لون بشرتها مثل لون الحليب وعيناها ضيِّقتان مثل عينيْ هرَّة عجوز إن كانت هناك تونسيَّات في مثل هذا الجمال؟ كانت تسألني مازحة أحيانًا. لو كنت رجلًا مثلك، لما قبلت بالزواج إلَّا من تونسيَّة.

بريجيت تبالغ بالطبع. وما تقوله سواء عن نفسها أو عن زهرة ليس صحيحًا تمامًا، فبشرتها ليست بيضاء إلى هذا الحدّ، وهي صافية وناعمة مثل الحرير. وعيناها ليستا ضيِّقتَيْن، فضلًا عن أنَّ لونهما الأخضر يجعلهما جميلتَيْن، خاصَّة عندما تكحِّلهما. أمَّا زهرة، فكلّ ما يمكن أن نقول عنها إنَّها تمتلك شيئًا من الجاذبيَّة، وإنَّ أهمّ ما يلفت الانتباه فيها هو جسدها الذي لم يترهَّل.

اتَّفقنا بسهولة على المهمَّة التي سنعهد بها لزهرة في بيتنا، والتي تتمثَّل في كنس أرضيَّة البيت وتنظيفها ونفض الغبار عن كلِّ ما فيه من أثاث وكتب وتحف وأوان خزفيَّة. وكيلا يربك عملها نظام حياتنا أو يدخل تغيّيرًا على إيقاعها، وضعنا لها شروطًا وضوابط دقيقة؛ تأتي مرَّة واحدة في الأسبوع صباح يوم الثلاثاء، وهو أحد الأيَّام التي لا أشتغل فيها. استبعدنا إمكانيَّة أن نُسلِّمها مفتاح الشقَّة لتأتي متى تشاء حين نكون خارج البيت، بالرَّغم من أنَّنا نثق فيها تمامًا. وعليها أن تنجز المهمَّة في ساعتَيْن. كما حدَّدنا أيضًا المبلغ الماليّ الذي سندفعه لها مقابل هذا العمل. وعليّ أن أعترف هنا بأنَّ بريجيت كانت أكثر كرمًا منِّي بكثير، فقد أصرَّت على أن ندفع لها مبلغًا يكاد يكون ضعف ما اقترحتُه، مُعلِّلة هذا بغلاء المعيشة في باريس.

عرضتُ الأمر على زهرة. وخلافًا لما كنت أنتظر، لم توافق فورًا. طلبت منِّي أن تدرس الأمر لأنَّ لديها أعمالًا كثيرة تؤدِّيها في بيوت أخرى. بيد أنَّ ما فاجأني أنَّها قالت لي إنَّها ستطرح الموضوع على زوجها، وإنَّ من الأفضل الحصول على موافقته. كنت أعتقد أنَّها حرَّة تمامًا في هذا المجال. وقد علمت فيما بعد أنَّها تستشيره في كلّ أمر تنوي القيام به في بيوت الآخرين، فهو لا يريدها أن تشتغل في كلِّ البيوت، ويفضِّل أن تعمل في بيوت الأرامل أو النساء العجائز المطلَّقات أو اللَّاتي لم يتزوَّجن قطّ مثل مدام ألبير. فوجئت بريجيت أيضًا بردِّ زهرة. تستشير زوجها! قالت باستغراب. عجيب! كيف تستشير رجلًا لا يستطيع حتّى أن يعتني بمظهره؟ بماذا يمكن أن يفيدها رجل غير قادر على أن يمشِّط شعره كما ينبغي؟ لو كنت مكانها لطلَّقته من زمان. لم أكن أدري أنَّ صورة منصور لدى بريجيت سيِّئة إلى هذا الحدّ. لأوَّل مرَّة أسمعها تنتقد بشدَّة أحدًا من سكَّان العمارة.

هكذا، صرت ألتقي زهرة في بيتي مرَّة في الأسبوع، ونقضي معًا ساعتَيْن في كلِّ مرَّة. أنفرد بها وتنفرد بي. لا بريجيت ولا زوجها ولا ابنها ولا أحد من سكَّان العمارة يحضر لقاءنا. ولم يكن هذا سهلًا علينا في البداية، فكلُّ لقاءاتنا السَّابقة كانت تتمّ إمَّا في الخارج في مكان عامّ أو بحضور آخرين. كنت أفكِّر باستمرار فيما كان يجول في ذهنها، وهو بالتأكيد ما كان يجول في ذهني، وعمومًا في ذهن كلّ ذكر وأنثى عندما يختليان بنفسيهما، وخاصَّة إن كانا منخرطيْن مثلنا في لعبة غواية.

وما لفت انتباهي هو أنَّها لم تكن ترتدي أيّ ملابس مثيرة أو تضع أيّ ماكياج عندما تأتي للخدمة، بل كنت أتساءل أحيانًا عمَّا إذا كانت تهمل نفسها عمدًا وترتدي ثيابًا فضفاضة وطويلة قبل مجيئها إلى بيتي. وما لاحظته أيضًا أنَّها كفَّت عن كلِّ ما كانت تفعله بين الحين والآخر منذ أن انخرطنا في لعبة الإغواء. كلّ تلك النَّظرات والحركات والأصوات والابتسامات الأنثويَّة اختفت تمامًا. لكنَّها ظلَّت مهذَّبة ولطيفة كعادتها. كان واضحًا أنَّها تريد أن تفهمني أنَّ العمل عمل، وأنَّه لا يجب المزج بينه وبين لعبتنا السرِّيَّة.

في الأيَّام الأولى، لم أكن أغلق باب الشقَّة. أتركه مواربًا قليلًا. ولأنَّ وجودي معها في البيت يربكها، كنت أتباطأ كثيرًا عندما أخرج لجلب البريد أو وضع كيس النفايات في الحاويات التي في الباحة. أقضي أيضًا لحظات طويلة في المطبخ حين تشرع في تنظيف الصالون حيث أكون في

العادة. وفي بعض الأحيان، أدلف إلى غرفة النوم وأغلق على نفسي الباب. أتمدَّد على السَّرير وأتصفَّح مجلَّات بريجيت أو أستمع إلى الموسيقى. وأبقى هناك إلى أن تنهي عملها. كنت أريد أن تشعر باطمئنان تامّ في بيتي.

كانت حالما تدخل البيت تشرع في العمل بعد أن تحيِّيني تحيَّة مقتضبة باردة. كان واضحًا أنَّها تحبّ عملها وتريد أن تنجزه على أكمل وجه. وفيما بعد، لا تكلِّمني إلَّا لتسأل أو تستفسر عن أمر يتعلَّق بمهمَّتها. كانت ترفض كلّ ما أقدِّمه لها من شاي وقهوة أو عصير. الشيء الوحيد الذي كانت تقبله منِّي هو كوب ماء معدنيّ حين تشعر بالعطش. حالما آتي به لها تكرعه. اللَّـه يرحم والديْك، تقول لي دائمًا من دون أن تنظر إلى وجهي، ثمّ تعود فورًا إلى عملها. لم ألحّ عليها أبدًا بالرَّغم من أنِّي كنت أرى أنَّها تبالغ في الانضباط. وفي الحقيقة، كنت آنذاك حريصًا مثلها على الاحتفاظ بهذه المسافة بيننا. كنت أخشى إن انبسطت معها أن يفلت منِّي شيء ما أو آتي حركة أندم عليها فيما بعد.

وبمرور الأيَّام، تعوَّد كلانا على حضور الآخر، وأخذت المسافة بيني وبينها تتقلَّص وصارت تلقائيَّة في تصرُّفها، بل شعرت أنَّها أصبحت تطمئن إليَّ. أنا أيضًا تأقلمت مع حضورها. عندما تودّ الاستراحة لبعض الوقت ـ وهو ما كنت أقترحه عليها حين أراها منهكة ـ صارت تأتي إلى الصالون للتفرُّج على الكتب كما تقول أو لمشاهدة التلفزيون إن كان مفتوحًا. أصبحت أيضًا تَقْبل أغلب ما كنت أقدِّمه إليها من مشروبات، وقد لاحظت أنَّ هذا يبهجها؛ ليس بسبب المشروبات في حدِّ ذاتها وإنَّما لأنَّها ترى في ذلك علامة تقدير واحترام لها كما استنتجت. وأنا أيضًا، كنت أشعر بشيء من الغبطة وأنا أقدِّم لها المشروبات. وفيما بعد، صارت تطرح عليَّ أسئلة عن مهنتي وعن الطلَّاب الذين كنت أقوم بتدريسهم وعن الجامعة التي كنت أعمل فيها، وأحيانًا كانت تذهب إلى ما هو أبعد، فتسألني عن أصلي وعائلتي في تونس. وفي مرحلة لاحقة، صارت تسألني عن بريجيت، وقد اكتشفت أنَّها تحترمها كثيرًا، بل ومعجبة بأخلاقها. وبالرَّغم من أنَّني أجد بعض أسئلتها محرجة وجريئة إلى حدّ ما، لم أكن أتردَّد بالإجابة، لأنِّي كنتُ على يقين من أنَّ أسئلتها هي بدافع حبّ الاستطلاع لا غير. لم أشعر أبدًا أنَّها تتلصَّص عليَّ أو تدسّ أنفها في حياتي الشخصيَّة.

لم أحاول أبدًا أن أدفعها إلى أن تحدِّثني عن حياتها، وإن كنت أرغب في معرفة ماضيها. هي التي بدأت ذلك ومن تلقاء نفسها، وفي وقت لم أكن أتوقَّعه. أظنّ أنَّ إحساسها بالاطمئنان لي وإجابتي عن أسئلتها بصدق ومن دون تردُّد هما اللذان شجَّعاها على ذلك. ومن اللَّحظات الأولى، اكتشفت أنَّ

لديها موهبة في رواية الحكايات، وهو شيء كنت أفتقر إليه على ما يبدو، إذ إنَّ بريجيت تقول لي دائمًا عندما أروي لها حكاية إنِّي لست موهوبًا في ذلك. أدركت أيضًا أنَّها ليست من هؤلاء الذين يتكتَّمون على ماضيهم خجلًا أو حياء.

لم تمض زهرة سوى الأعوام الأولى من طفولتها في إحدى القرى الصغيرة المحيطة بمدينة غمراسن في الجنوب، حيث ولدت. أبوها كان فقيرًا مثل الكثير من سكَّان القرية، لكنَّه يختلف عنهم في شيء أساسيّ وهو أنَّه الوحيد الذي لا يملك أرضًا ولا زيتونًا ليجني منهما ما يكفي لمؤونة العامّ، ولا أبقارًا ولا خرافًا ليبيعها إذا اقتضى الأمر ذلك. كلُّ ما كان يملكه بضعة أرانب ودجاجات وبيت العائلة القديم الآيل للسُّقوط الذي تخلَّى له عنه إخوته وأخواته. لذا، ترك قريته وهاجر إلى العاصمة مع عائلته. كانوا أربعة عداها؛ أبوها وأمَّها وأخت تكبرها بعام وأخ يصغرها بعاميْن. أقاموا كلُّهم في غرفة واحدة في حيّ الجبل الأحمر الشعبيّ. ومنذ الصغر، بدأت هي وأختها تشتغلان خادمتَيْن في بيوت حيّ المنزه الذي كان أرقى حيّ آنذاك في تونس. في حين كانت أمُّها تريدُ أن تدخلا المدرسة مثل أخيهما الصغير. في تلك الفترة، بدأت عائلات في الحيّ تسجِّل بناتها في المدارس، فقد كانت الدولة تشجِّع على تعليم البنات، وبورقيبة يتحدَّث عن ذلك في أغلب خطبه. لكنَّ أباها رفض. لم يكن لديه ما يكفي من الفلوس ليتحمَّل مصاريف المدرسة لثلاثة تلاميذ، فضلًا عن أنَّه كان في حاجة ماسَّة إلى ما تحصلان عليه من فلوس مقابل شغلهما في البيوت، فالأعمال التي كان يقوم بها بين الحين والآخر لفترات قصيرة لم تكن تؤمِّن له دخلًا كافيًا لإعالتهم.

لم تكن آنذاك تعلم شيئًا عن الهجرة إلى أوروبا. كلُّ ما كانت تعرفه، هو أنَّ هناك في الحيّ عائلة لها ابن يعمل في بلجيكا. كان يأتي كلّ صيف لقضاء العطلة في تونس. كانت له فلوس كثيرة. كان يجلب ثيابًا فاخرة وهدايا لكلّ أفراد عائلته يفتخرون بها في الحيّ. ولكنَّ أجمل ما كان لديه سيَّارة فخمة لم تر أبدًا مثيلًا لها. بعض الناس كانوا يقولون إنَّها أغلى من سيَّارات الوزراء التي نشاهدها في التلفزة.

قادتها صدفة محضة إلى الهجرة. ذات يوم، تعرَّفت في حيّ المنزه على خادمة أكبر سنًّا وتجربة منها. أحبَّتها، فقد كانت طيِّبة ولطيفة ولا تتردَّد في مساعدتها، خلافًا للكثير من الخادمات الأخريات. علَّمتها أمورًا كثيرة لم تكن تعرفها. وهي التي نصحتها بأن تهاجر إلى فرنسا للعمل هناك. قالت لها إنَّ العربيَّات يجدن عملًا بسهولة كبيرة في بيوت الفرنسيِّين.

هناك عجائز غنيَّات كثيرات في فرنسا. يعشن وحيدات في بيوتهنَّ ويحتجنَ إلى من يخدمهنَّ، لأنَّ أبناءهنَّ وبناتهنَّ تخلُّوا عنهنَّ. قالت لها أيضًا إنَّ راتب خادمة في فرنسا أكبر من راتب معلِّم في تونس. ثمّ إنَّ الفرنسيِّين لا يحتقرون الخادمات كما في تونس ويعاملونهنَّ باحترام.

منذ ذلك الوقت، بدأ حلم الهجرة يراودها. لم يفارقها أبدًا طوال الأعوام التي أمضتها في خدمة البيوت. عندما كبرت وصار باستطاعتها أن تسافر بمفردها، استخرجت جواز سفر بمساعدة أحد الموظَّفين الحكوميِّين الذين كانت تشتغل في بيوتهم.

وبعد أشهر قليلة، وجدت نفسها في مرسيليا. لم تختر الإقامة في مرسيليا. كان السفر بالطائرة مكلفًا في تلك الأيَّام. سافرت بالباخرة. واستقرَّت في أوَّل مدينة فرنسيَّة أرست فيها الباخرة.

أمضت هناك بضعة أشهر. كانت الحياة صعبة. ومع ذلك، لم تيأس ولم تندم. بذلت مجهودًا كبيرًا ونجحت في التأقلم معها. إلَّا أنَّ مرسيليا لم تعجبها، فهناك عرب وسود كثيرون. لم تكن تتصوَّر أبدًا أنَّ فرنسا مليئة بالمهاجرين إلى هذا الحدّ، وأنّ العديد من الرجال عنيفون وغير مهذَّبين، ولهم تصرُّفات غريبة مع النساء، وخاصَّة مع العربيَّات. ثمَّ إنَّ العثور على عمل لم يكن سهلًا لشدَّة المنافسة. لذا قرَّرت أن تسافر إلى باريس، حيث استقرّ بها المقام وتزوَّجت بعد فترة. هناك شيء سهَّل عليها الأمور وجعل حلمها بالهجرة يتحقَّق، وهو وفاة أبيها. لو كان على قيد الحياة، لما سمح لها أبدًا بالسَّفر وحيدة إلى فرنسا، ولما تجرَّأت هي على تحدّيه.

كانت أوَّل امرأة في الحيّ تهاجر إلى فرنسا. ولم تجد أيّ معارضة لا من أمِّها ولا من أختها الكبرى ولا من أخيها الذي حلّ محلَّ الأب في العائلة على الرَّغم من صغر سنّه. وبالطبع، استغرب الناس ذلك، خاصَّة أنَّها لم تهاجر برفقة زوج أو خطيب أو أحد أقاربها، وإنَّما وحيدة. كانت فرنسا تبدو آنذاك بلدًا خطيرًا وصعبًا، وكانوا يسمعون أخبارًا وحكايات كثيرة عن الجريمة والفساد فيه وعن مغريات الحياة، وخاصَّة عن طيش النساء. وفي فترة ما، روَّج بعض الحسَّاد إشاعات عن سلوكها في فرنسا، أغربها أنَّها تزوَّجت من فرنسيّ يكره العرب والمسلمين. ومن حسن الحظّ، أنَّ أغلب سكَّان الحيّ لم يصدِّقوها.

لم أشعر أبدًا بالملل من حكاية اغترابها. بالعكس، كنتُ أجد متعة في الاستماع إليها وهي تتحدَّث عن ماضيها البعيد بلهجتها الجنوبيَّة. وكلَّما ازددتُ معرفة بهذا الماضي، ازددتُ إعجابًا بها.

– 6 –

ـ أريد أن تعلِّمني القراءة والكتابة بالعربيَّة..

قالت لي زهرة بغتة ذات صباح، بينما كانت منهمكة في مسح الغبار عن جهاز التلفزيون. كنت جالسًا على الكنبة في الصالون أرقبها وهي تعمل بهمَّة كعادتها.

ـ أنت أستاذ.. وتونسيّ.. لن أجد أحسن منك.. ابني كريم يعرف العربيَّة.. تعلَّمها في الجامع عندما كان صغيرًا.. لكنَّ مستواه ضعيف.. ولا أعوِّل عليه..

فوجئت بطلبها. كنت أتوقَّع آنذاك أن تطلب منِّي كلَّ شيء إلَّا أن أعلِّمها القراءة والكتابة. وما لفت انتباهي هو العزم وقوَّة الإرادة والتَّصميم الذي في نبرتها. ومع ذلك، لم أتردَّد لحظة واحدة. وافقت فورًا. لم يكن باستطاعتي ألَّا أستجيب لطلب نبيل من هذا النوع، خاصَّة، إذا بدر من امرأة مثل زهرة. أشعّ وجهها ابتهاجًا. كان واضحًا أنَّها هي أيضًا فوجئت بموافقتي السَّريعة.

بعد وقت قصير، تساءلت عمَّا إذا كنت تسرَّعت وورَّطت نفسي في مسألة قد لا أكون قادرًا عليها. ليس سهلًا أن تعلِّم القراءة لأمِّيّ، خصوصًا في عمر متقدِّم مثل عمر زهرة. صحيح أنَّني أستاذ، لكنّني أدرِّس الرياضيَّات، ولطلَّاب في الجامعة. لست معلِّم لغة في مرحلة ابتدائيّة. ثمّ إنَّني لا أمتلك البيداغوجيا الضروريَّة لتعليم المبتدئين. وقد أدركت هذا عندما شرعت قبل أعوام طويلة في تعليم ابني سامي اللُّغة العربيَّة. كنت شديد التحمُّس لذلك في البداية. ولكن بعد فترة قصيرة، كلَّفت معلِّما متخصِّصاً لإنجاز المهمَّة. شعرت برغبة في أن أقول لها كلّ هذا من الآن لئلّا تُصاب بخيبة أمل في حال عدم الحصول على نتائج جيِّدة. بيد أنَّني لم أفعل. خشيت أن تتصوَّر أنِّي لست أستاذًا

كبيرًا كما كانت تظنّ، فيخيب ظنُّها فيَّ. ولم أشأ أيضًا أن أبدو شخصًا أنانيًّا لا يرغب في مساعدة الآخرين حين يكونون في حاجة إليه.

ـ سأدفع لك..

أضافت بنبرة واثقة.

ـ تدفعين!.. ماذا ستدفعين؟

ـ أجرك..

أفلتت منِّي ضحكة، وقلت بشيء من السُّخرية:

ـ أجري!.. لن تدفعي شيئًا..

توقَّفت عن العمل واستدارت صوبي وقد بدت على وجهها علامات انزعاج خفيف، ثمّ تطلَّعت إلى السَّقف كأنَّها تبحث عمَّا يجب أن تردّ به:

ـ ولماذا لا أدفع لك؟

انتبهتُ عندئذ إلى أنَّ ما قلته لها جرحها.

ـ لستُ فقيرة.. لديَّ ما يكفي من الفلوس..

هززت رأسي بالإيجاب محاولاً إصلاح خطئي. ثمَّ قلت:

ـ لم أكن أقصد هذا.. لم أكن..

قاطعتني، لكن بهدوء:

ـ لن أقبل أن تُعلِّمني مجَّانًا.. لا أحد يقبل أن يشتغل مجَّانًا.. أنا أحترم كلّ الذين اشتغلت في بيوتهم. وأقوم بمهمَّتي على أكمل وجه.. لكنِّي أدافع بقوَّة عن حقوقي.. لا أقبل أن يستغلَّني أحد.. الحقّ مقدَّس.. والظلم أمر مكروه.. الدين نهى عنه.. أطلب منك شيئًا واحدًا إن أردت أن تساعدني.. شيء واحد فقط..

سكتت وثبَّتت بصرها على وجهي.

ـ وما هو هذا الشيء؟

ـ أن تراعي ظروفي..

ارتعشت شفتها السُّفلى من شدَّة الاضطراب. لأوَّل مرَّة، ألاحظ ذلك.

ـ أعرف أنَّك أستاذ كبير.. وأنَّ هذا سيأخذ من وقتك.. الحقيقة تستحقّ الكثير.. لكنَّ ظروفي لا تسمح لي بأن أدفع لك أجرًا عاليًا..

وفورًا، حرَّكت رأسي موافقًا. اعتراني قليل من التوتُّر حين فكَّرت من جديد في صعوبة المهمَّة التي تريدني أن أنجزها.

لو قمتُ بها من دون أيّ مقابل ماديّ لكنتُ أكثر ارتياحًا عندما تكون النتائج غير إيجابيَّة. أمَّا أن أتقاضى أجرًا على هذه المهمَّة، فلا بدَّ أن تنجح. وهذا أمر غير مؤكَّد، خصوصًا لكونه لا يتوقَّف عليَّ أنا فقط وعلى طريقتي في التَّعليم، وإنَّما أيضًا على زهرة واستعدادها للتعلُّم بسرعة. كنت أعرف أنَّها امرأة ذكيَّة، ولكنَّ طاقة الاستيعاب تتناقص كثيرًا مع التقدُّم في العمر. في يوم آخر، أخبرتها أنَّني درست الأمر جيّدًا وقرَّرتُ ألَّا أتقاضى أيّ أجر. أصرَّت على موقفها، وظلَّت هكذا لبضعة أسابيع. وعندما تبيَّن لها أنَّني لن أتراجع عن قراري، تخلَّت عن موقفها. وبسرعة، أفهمتني أنَّها ستقدِّم لي في المستقبل من الخدمات ما يمكن أن يعوَّض لي عن جهدي. وطبعًا، أخبرت بريجيت بالأمر. لا يجوز أن أبقي مسألة كهذه سرًّا. وعلى أيّ حال، ليس هناك أيّ داع لذلك.

ابتهجت بريجيت بالخبر بالرَّغم من أنَّها استغربته. لم تكن تتوقَّع أن تطلب منِّي زهرة شيئًا كهذا. ولم تكن تنتظر أن أقبل هذه المهمَّة بسهولة، فهي تعرف المتاعب التي لاقيتها عندما اضطررت إلى أن أعلِّم ابننا العربيَّة، لأنَّه لا توجد مدارس لذلك في حيِّنا، ولم نشأ بحكم صغر سنّه أن نرسله إلى المدارس البعيدة عن بيتنا. عبَّرت عن إعجابها بي، واعتبرت أن ما سأقوم به عمل إنسانيّ نبيل، وخصوصًا أنِّي رفضت منذ البداية أن أتقاضى أيّ أجر. وأكبرت أيضًا لدى زهرة قوَّة إرادتها ورغبتها في التعلُّم وهي في مثل هذه السنّ، وبالرَّغم من الأعمال الكثيرة التي تقوم بها كلّ يوم في البيوت لكسب لقمة العيش.

وكي تردّ لي زهرة الجميل كما تقول، صارت تقضي وقتًا أطول في تنظيف البيت، متجاوزة أحيانًا السَّاعتَيْن بكثير. كما صارت تأتيني بين الحين والآخر بأطباق تونسيَّة أصيلة لا نجدها بكثرة في المطاعم التونسيَّة التي أتردَّد عليها في باريس، مثل «الملوخيَّة» أو «المرمز». ولم أفاجأ بأنَّها تُتقن الطبخ. كنت ألتذّ كثيرًا بتناول هذه الأطباق. والجميل في الأمر، أنّي كنت ألتهمها كلُّها وحدي، فبريجيت لا تحبّ من الطبخ التونسيّ سوى أطباق قليلة جدًّا مثل الكسكسي بالحوت والسلاطة المشويّة.

أخبرت زهرة زوجها منصور. هو أيضًا لا يعرف القراءة والكتابة بالعربيَّة لأنَّه لم يدخل الكتَّاب ولا المدرسة عندما كان في تونس، إذ لم تكن هناك مدرسة في منطقتهم. والكتَّاب الوحيد بعيد جدًّا عن بيتهم. كان يعرف قليلًا من الفرنسيَّة التي تعلَّمها من معاشرته للفرنسيِّين والاحتكاك بهم عندما كان يشتغل في معامل رينو للسيَّارات. في البداية، حاولت أن تبقي الأمر سرًّا لسبب لا أدريه. وعندما لاحظ أنَّها صارت تقضي في بيتي وقتًا أطول من السَّابق، قرَّرت أن تُخبره كي تطمئنه.

لم يبدُ أيّ حماس للأمر الذي فاجأه تمامًا، بل إنَّه استغرب ذلك. وبعد أيّام قليلة، أمرها بالتوقُّف عن التَّعلُّم. كان يخشى أن يستنفد ذلك طاقتها ويأخذ من وقتها، فتتناقص خدماتها في البيوت ممَّا يؤدِّي إلى تراجع في مداخيلها. بيد أنَّ زهرة أصرَّت على موقفها. لأوَّل مرَّة تتحدَّاه بوضوح. وكان لديها ما يكفي من الجرأة لمواجهته. تراجع في النهاية، وقبِل الأمر على مضض.

كانت الدروس تتمّ في شقَّتي في اليوم الذي تأتي فيه لتنظيف البيت بعد الانتهاء من عملها. ولم تكن تستغرق وقتًا طويلًا.

تعلَّمت كتابة الحروف ونطقها بسرعة. ثمّ انتقلت إلى الكلمات. كانت لديَّ كتب عربيَّة اشتريتها من تونس عندما كنت أعلِّم سامي العربيَّة. أخرجتُها من العلب الكرتونيَّة التي كنت أحتفظ فيها بكتبي وكتب بريجيت التي لم نعد نحتاج إلى قراءتها.

منذ فترة طويلة لم أفتحها. كانت قديمة؛ أطرافها تآكلت، واصفرَّت أوراقها وأغلفتها، وبدت الصُّور والرُّسوم الإيضاحيَّة بألوانها الباهتة غريبة وغير جميلة. خشيت أن يشكِّل هذا عائقًا يبدِّد حماس زهرة ويقضي على رغبتها في التَّعلُّم. بيد أنَّ ما حدث هو العكس تمامًا، فقد أعجبت كثيرًا بتلك الكتب القديمة التي كانت ترى مثلها في واجهات المكتبات في تونس وهي صغيرة. كانت تبدي

ملاحظات حول الخطّ، لا أذكر أنَّها خطرت ببالي عندما تعلَّمت الكتابة وأنا صغير، ولا عندما علَّمتها لابني فيما بعد. وأطرف هذه الملاحظات تتعلَّق بالطريقة التي تكتب بها معظم الحروف عندما تَردُ في آخر الكلمة. يغمرها السرور عندما أطلب منها أن تخطّها. كانت تحبّ هذه القفلة المستديرة لآخر حرف في الكلمة. كانت تقول وهي تخطّها إنّ الكلمة اكتملت الآن ولا بدَّ أن نغلق الباب كي تبقى داخل بيتها. كانت أيضًا تحبّ التاء المربوطة. لا بدَّ أن نربطها الآن مثلما نربط الناقة أو البقرة كيلا تفرّ، تقول لي. وكانت تتعاطف أيضًا مع الهمزة عندما تُرسم على السَّطر في نهاية الكلمة. مسكينة، تقول. إنَّها صغيرة ولا شيء يحمي ظهرها، ولا يجوز أن نتركها وحدها في العراء هكذا. كانت تودّ لو رسمناها كالنُّون أو كالحاء مثلًا كي تطمئنّ عليها. كانت أيضًا تحبّ النقاط الثلاث على حرف الثاء، وتتساءل عن الحكمة من رسمها على شكل مثلَّث.

والحروف في حدّ ذاتها، كانت مصدرًا للكثير من الأحاسيس والتساؤلات والتصوُّرات. كانت تحبّ حروفًا وتكره أخرى. وكانت تتحدَّث عنها كما لو أنَّها ليست مجرَّد أصوات وأشكال، وإنَّما كائنات حيَّة تتخيَّل لها صورًا. تحبّ الباء والحاء والعين والصاد، وخاصَّة الميم والنون. في أغلب الأحيان، تنطقها بصوت مرتفع، كما لو أنَّها تودّ التمتُّع أكثر ما يمكن بنُطقها. دائمًا تبتسم حين تنطق الباء. تتخيَّله خروفًا وديعًا. العين عروس جميلة. وتعتبر الحاء حرفًا لطيفًا مهذَّبًا، وتتخيَّله دائمًا على شكل فراشة. تعشق النون شكلًا وصوتًا. أشعر براحة واطمئنان حين أنطق به. أتخيَّله رجلًا هادئًا حكيمًا بلحية بيضاء كثَّة.

أمَّا الحروف التي لا تحبُّها، فهي الهاء والواو والطاء والظاء والياء. تقول عن الهاء إنَّها عجوز شرّيرة. وتجدُ شكلها غريبًا، وهي من الحروف التي لا تُتقنُ رسمها، وخاصَّة إذا وقعَت في وسط الكلمة. تتخيَّل حرف الظاء متشرِّدًا مثل الكثير من الذين نشاهدهم في شوارع باريس وحدائقها العموميَّة. أمَّا الواو، فهو بالنِّسبة إليها رجل فظّ، طويل القامة، عريض المنكبَيْن، مفتول العضلات، سريع الغضب، يعاقب أبناءه باستمرار ولا يتورَّع عن ضرب زوجته بحزامه الجلديّ كما يفعل المدمنون على الخمر الذين يتحدَّثون عنهم في التلفزة.

وهناك حروف تستغرب وجودها أصلًا. الكاف. ما معنى الكاف؟ لماذا يسمُّونه هكذا؟ ألا يعرفون أنَّ هناك مدينة كاملة في شمال تونس اسمها الكاف؟ وحرف الشين؟ من أين أتوا بهذه الاسم العجيب؟ ولماذا يطلقون اسم بلد بعيد في آسيا على حرف عربيّ؟ والزاي؟ ما معنى الزاي؟ لم أسمع

بهذا إلَّا في الأفلام المصريَّة. لو كنت مكان الذين اخترعوا الحروف، لحذفتُ كلّ الحروف السَّيِّئة والغريبة، ووضعت مكانها حروفًا جميلة مثل النون. أحبّ العربيَّة. وأحبّ أن تكون أجمل لغة في هذه الدُّنيا.

– 7 –

لم تكد تمضي بضعة أسابيع مذ شرعتُ في تعليم زهرة القراءة والكتابة حتّى انتبهتُ إلى أنَّ إحساسًا بدأ يتشكَّل ببطء شديد في داخلي. إحساس لذيذ لم أفلح في تحديد طبيعته ولا سببه. كنت أتصوَّر أنَّه من هذا النوع من الأحاسيس العابرة التي تنتابنا بين الحين والآخر مثل أحلام جميلة، فننتشي بها للحظات قصيرة ثمّ تتلاشى. لكنَّ الإحساس لم يختف، بل تنامى مع مرور الوقت.

كانت زهرة قد أخذت تعتني بنفسها من جديد منذ أن بدأت تتعلَّم القراءة والكتابة. صحيح أنَّها ظلَّت تأتي للخدمة من دون ماكياج، لكنَّها صارت حريصة على تمشيط شعرها وتصفيفه بعناية. ويبدو أنَّها أصبحت تستحمّ أكثر من قبل. أمَّا ثيابها الطويلة الفضفاضة، فقد تخلَّت عنها واستبدلتها بثياب أجمل تناسب جسدها من دون أن تبرز ما بقي فيه من مفاتن. لاحظت أيضًا أنَّ رائحتها دائمًا طيِّبة، ممَّا جعلني أتساءل عمَّا إذا كانت تضع قليلًا من العطر فور الانتهاء من عملها وقبل بدء الدرس.

كانت تجلس بقربي إلى الطاولة في الصالون في أوقات التعلُّم. المسافة التي تفصل بيننا قصيرة جدًّا، لا تتجاوز الشبرَيْن. في بعض الأحيان، تتلامس أذرعنا وأقدامنا حين نحرِّكها. وذات يوم، شعرت وأنا أتطلَّع خفية إلى خصلة تدلَّت من شعرها، حين انحنت لالتقاط قلم سقط من بين يدَيْها على الأرض، أنَّ ما بيني وبينها تجاوز لعبة الإغواء البريئة إلى ما هو أقوى، وسرعان ما فهمت أنَّ الإحساس اللَّذيذ الذي بدأ يتسرَّب إلى نفسي منذ فترة هو حبّ. نعم. حبّ. يا إلهي.. وقعت في حبّ جارتي زهرة! ظللت للحظة طويلة لا أصدِّق ما أشعر به، ثمّ غزتني الأسئلة. ولكن، كيف حدث لي هذا؟ ألم أكن شديد الحذر في تعامُلي معها منذ أن بدأت أهتمّ بها. ألم أكن أعتقد أنَّني أتحكَّم

تمامًا في لعبة الإغواء وأمسك بكلِّ خيوطها؟ لا شكّ أنَّني كنتُ واثقًا من نفسي أكثر من اللَّازم. هل أنا ضعيف إلى هذا الحدّ، أم أنَّ الحبّ قويّ إلى درجة أنَّه جرفني، فلم أنتبه حتّى إلى قدومه؟

ولعلّ السَّبب في كلِّ ما يحدث لي هو التقدُّم في السنّ. تذكَّرت أنَّني قرأت ذات مرَّة، في عدد قديم من إحدى المجلَّات النسائيَّة التي تحتفظ بها بريجيت، أنَّ بعض الرجال الذين هم في عمري تتملَّكهم لبضعة أعوام رغبة قويَّة في الحبّ والجنس معًا، قبل أن تهرم أجسادهم وتموت فيهم الشهوة. تمامًا مثل الجمرة التي تتوهَّج لعدَّة ثوانٍ قبل أن تنطفئ. من يدري؟ قد أكون من فصيلة هؤلاء الرجال.

اعتراني اضطراب شديد، وفقدت قدرتي على التَّركيز. نهضت وتوجَّهت إلى المطبخ. شربت كوب ماء بارد. وعندما عدت إليها، شعرتُ أنَّه لم تعد لديَّ آنذاك أيّ رغبة في مواصلة الدَّرس. تظاهرت بأنِّي متعب. وبسرعةٍ، لاحظتْ زهرة ذلك.

جمعتْ أقلامها وأوراقها وودَّعتني، ثمّ نهضت. لم أعتذر لها، بل لم أنبس بكلمة. بقيت أنظر إليها في شرود إلى أن خرجت من الشقَّة.

غمرَني الارتياح، فقد كنت أريد أن أبقى وحيدًا لأدرس الأمر بهدوء وأحاول أن أعرف ما حدث لي بالضبط. حالما أغلقت الباب، دلفت إلى غرفة النوم وتمدَّدت على الفراش، ثمّ أغمضت عينيَّ ورحت أستعيدُ كلّ ما تسعفني به الذاكرة من مشاهد عن لقاءاتنا وأقوالنا وحركاتنا منذ أن عرفت أنَّ زهرة تونسيَّة. أردت أن أبحث فيها عمَّا يوحي ولو من بعيد بأنِّي سأقع ذات يوم في حبّ هذه المرأة.

وفيما بعد، تذكَّرتُ بريجيت. لم يحدث أبدًا أن خنتها أو حتّى فكَّرت في ذلك. وها أنا أخونها بشكل ما الآن. ومع من؟ مع خادمتها! لو وجدتُ ما يكفي من الشجاعة واعترفت لها بهذا لما صدَّقتني. ومن المحتمل أن تستهزئ بي وتطلب منِّي أن أبذل مجهودًا أكثر في المرَّة القادمة حين أروي لها حكاية من هذا النوع لتكون أفضل، وهو ما تقوله لي أحيانًا عندما أروي لها قصصًا غريبة.

الشخص الثاني الذي فكَّرت فيه بعد بريجيت هو منصور. لم ألاحظ عليه أيّ تغيير في سلوكه منذ أن بدأت زهرة تعمل في بيتنا وحتّى منذ أن شرعت في تعلُّم القراءة والكتابة. ظلَّ يحيِّيني

كعادته وبالطريقة نفسها كلَّما التقينا في مدخل العمارة. من المستحيل أن يخطر بباله أن أقع في حبّ زهرة. ولا يمكنه أن يتصوَّر أنَّ زوجته تجتذب الرجال وهي في هذه السنّ، خاصَّة إذا كان هؤلاء الرجال في مقامي ومن البلد نفسه، ويقيمون في العمارة نفسها التي يقيم فيها، وفي شقَّة لا تفصلها سوى بضع خطوات عن شقَّته.

رحت أتخيَّل ردَّة فعله لو عَلِمَ أنَّني أعشق زوجته. من المؤكَّد أنَّ الخبر سيصدمه. إنَّ خبرًا من هذا النوع يُحدث دمارًا لدى أيِّ رجل، فما بالك إن كان هذا الرجل مثل منصور. سيغضب غضبًا شديدًا يخرجه عن طوره. سيعتدي عليّ، أو في أفضل الحالات، يخاصمني أمام الجميع ممَّا سيسبِّب لي فضيحة كبرى في العمارة ستكون لها انعكاسات سيِّئة عليَّ وعلى علاقتي ببريجيت التي ستتألَّم كثيرًا بدورها وقد تنفصل عنِّي. سيضرب زهرة ضربًا مبرحًا. وإن لم يُطلِّقها لسبب ما، فسيأمرها حتمًا بالتوقُّف عن العمل في بيتنا فورًا، وبالطبع عن تعلُّم القراءة والكتابة. ستمتثل لأمره، إذ لا يجوز أن تتحدَّى امرأة زوجها على مرمى ومسمع من الجميع أو تبدي مجرَّد رأيها في مسألة حسَّاسة تتعلَّق بالشرف، حتّى وإن لم يكن لها أيّ ذنب في ذلك.

لم تكن لديَّ آنذاك أيّ فكرة عن طبيعة مشاعر أحدهما تجاه الآخر وعمقها. لم أكن أدري إن كان لا يزال بينهما حبّ، بل كنت أتساءل أحيانًا عمَّا إذا كانا قد أحبّا بعضهما بعضًا يومًا ما. هناك كثيرون من المهاجرين يتزوَّجون من دون أن يكون بينهم حبّ. الظروف والمصالح تدفعهم إلى ذلك. لم يحدث أن أشارت زهرة عندما كانت تحدِّثني عن هجرتها واستقرارها في فرنسا، ولو من بعيد، إلى حبِّها لمنصور أو حتّى إلى طريقة تعرُّفها عليه. كلّ ما أعرفه عنهما يعرفه الجميع؛ وهو أنَّهما متزوِّجان. هذا كلّ ما في الأمر. بيد أنَّني أميل، بناء على ما يقوله لي حدسي وعلى ما ألاحظه في بعض تصرُّفاتهما، إلى أنَّه ثمّة خللٌ ما في علاقتهما. هل هناك صلة ما بين هذا الخلل وإهمال زوجها لمظهره إلى هذا الحدّ؟ لا أستبعد ذلك. لا تحكم على المظاهر. المظاهر خادعة، تقول لي بريجيت دائمًا، حين نخوض في موضوع العلاقات بين الأزواج. لا أحد يعرف بالضبط ما يمكن أن يحدث بين زوج وزوجته. ليس هناك ما هو أكثر غموضًا وغرابة وتقلُّبًا في عالم العلاقات البشريَّة من علاقة ذكر وأنثى.

لم أعد قادرًا على البقاء في البيت وحدي. تخيَّلت بريجيت بجانبي، فصرت أتحدَّث إليها. إنَّها حيلة ألجأ إليها حين تشتدّ عليَّ وطأة العزلة. لم أحدِّثها عن زهرة وعن حبِّي لها. حدَّثتها عن

الضرائب التي لا تتوقَّف عن الارتفاع، وعن أمور أخرى تتعلَّق ببيتنا وتحدَّثنا عنها كثيرًا في السَّابق واختلفنا حولها كالعادة. تغيير ستائر النوافذ بأخرى أكثر بساطة وجمالًا. شراء سجّاد للصالون أكبر من السجَّاد الحالي الذي بدأت أطرافه تتآكل من كثرة القِدَم، تصليح أنبوب المرحاض الذي تنبعث منه أحيانًا رائحة كريهة..

إلَّا أنَّ الحديث مع بريجيت لم يُجدِ نفعًا، فقرَّرتُ أن أغادر الشقَّة. كان لا بدَّ أن أخرج لأستنشق هواء باردًا ينعش ذهني. كان لا بدَّ أن أمشي مسافة طويلة كي أستطيع السَّيطرة على كلّ ما يعتمل في داخلي من أحاسيس متناقضة. صحيح أنَّ وقت المشي الذي أحرص عليه كلَّ يوم لم يَحن بعد، لكن لم يكن لديَّ خيار آخر. ابتهجت حين وجدت الرَّصيف خاليًا إلى حدٍّ ما. من أجمل الأشياء التي أحبُّها في باريس أرصفتها العريضة. أحبُّها لأنَّها تسمح لي بأن أوسِّع الخطى قدر ما أريد، وأن أحافظ على إيقاع المشي من دون أن اضطرّ إلى أن أخفِّف من السرعة أو أحيد قليلًا أو أتوقَّف للحظة لتجنُّب الاصطدام بالمارَّة أو لأفسح المجال لبعض العجائز أو المعاقين.

ظللتُ أمشي إلى أن هدَّني التعب. دلفت إلى أوَّل مقهى صادفني. كان خاليًا إلَّا من ثلاثة رجال يجلسون إلى طاولة بالقرب من المدخل، وفتاة جالسة إلى طاولة في آخر المقهى ومستغرقة في قراءة كتاب، وامرأة واقفة بالقرب من الكونتوار تحتسي البيرة. استغربت أن يكون المقهى فارغًا. معظم المقاهي تكون مليئة في مثل ذلك الوقت. ثمّ إنَّ المقهى جميل وكلّ ما فيه نظيف ومرتَّب.

لم أعر المرأة اهتمامًا في البداية، بالرَّغم من أنَّني جلست إلى طاولة غير بعيدة عن الكونتوار. ولكن عندما نظرت إليها ثانية، خُيِّل إليَّ أنَّها تشبه بريجيت إلى حدٍّ ما. ليس في الجسد فحسب، وإنَّما أيضًا في وجهها، بالرَّغم من أنَّ بشرتها سمراء و لون عينَيْها ليس أخضر كلوْن عينَيْ بريجيت. حاولت أن أصرف ذهني عن ذلك وأفكِّر في أمور أخرى، لكن لم أفلح. بل صرت أسترق إليها النَّظر بين الحين والآخر.

وما حدث لي معها فيما بعد أذهلني. فجأة استدارت صوبي وحدَّقت في وجهي، ثمّ ابتسمت قبل أن تدير لي ظهرها بحركة جعلتني أتساءل عمَّا إذا كانت مومسًا. لا شيء في مظهرها أو ماكياجها يوحي بأنَّها مومس. بل إنَّها بدت لي أنيقة. إلَّا أنَّ ابتسامتها الثانية لم تترك لي أيّ مجال

للشكّ. قلت في نفسي وأنا أستدير صوب الشارع لكي أتجنَّب النَّظر إليها، لا ينقصني في هذا الصباح إلَّا هذا!

بعد لحظات، انتبهت إلى أنَّها تركت الكونتوار وجلست إلى طاولة لا يفصلها عن طاولتي سوى مترَيْن تقريبًا. من الواضح أنَّها قرَّرت أن تصطادني. لا شكّ أنَّها استنتجت من مظهري وثيابي أنِّي زبون جيِّد. ولعلَّ قلَّة الزبائن في المقهى دفعتها إلى أن تكون جريئة إلى هذا الحدّ. صار باستطاعتي أن أراها حالما ألتفت قليلًا إلى اليمين. ولم أشأ أن أدير لها ظهري أو أنتقل إلى طاولة أخرى. خشيت إن فعلت أن أجرحها. صحيح أنَّها مومس، ولكن المومس لها كأيّ كائن بشريّ كرامة.

خفت أيضًا من ردّ فعلها؛ أن تقول كلمة أو تبدر منها حركة تزيد في توتُّري. ولا أدري لماذا بدا لي فجأة أنَّها عربيّة. بل تساءلت في لحظة ما عمَّا إذا كانت تونسيَّة. هناك مومسات عربيَّات في فرنسا.

في كلِّ المهن تقريبًا في فرنسا، نجد عربًا. هناك أطبَّاء ومهندسون ومحامون وأساتذة عرب، وهناك أيضًا متسوِّلون ولصوص ومجرمون عرب، فلماذا لا نجد مومسات عربيَّات؟ من المحتمل جدًّا أنَّها تعرف أنِّي عربيّ. وربَّما لهذا السَّبب كانت جريئة. لعلَّها تحنّ إلى زبون عربيّ.

حاولت أن أتذكَّر آخر مرَّة ضاجعت فيها مومسًا. لم أستطع. إلَّا أنِّي كنتُ متأكِّدًا من أنَّ ذلك حدث في تونس عندما كنت طالبًا في الأعوام الأولى من الدراسة في الجامعة. في تلك الفترة، كان من الصَّعب جدًّا أن تمارس الجنس مع امرأة خارج الزواج. كانت هناك في الجامعة طالبات متحرِّرات، لكنَّهنَّ قليلات. لذا، كان معظم الشباب يحلُّون مشاكلهم الجنسيّة باللُّجوء إمَّا إلى الماخور أو إلى العادة السرِّيَّة.

فوجئت بوجود بريجيت في البيت عندما عدت إليه. لقد مرّ الوقت سريعًا ولم أنتبه لذلك. كانت سعيدة بخروجها من البنك قبل انتهاء الدوام بساعتَيْن وعودتها إلى البيت مبكِّرًا. إنَّها تحبّ أن تفعل ذلك بين الحين والآخر منذ أن خفّضت الحكومة من ساعات العمل. وللتَّعبير عن سعادتها، أعدَّت شايًا وجاءت به إلى الصالون مع قليل من الكعك. يحلو لها أن نرتشف القهوة والشاي معًا، في العصر تمامًا، مثلما تحبّ أن نشرب معًا قليلًا من النبيذ قبل تناول العشاء، كلَّ يوم سبت للاحتفال

بعطلة نهاية الأسبوع. لم تكن لديَّ آنذاك أيّ رغبة في تناول أيّ شيء. ومع ذلك، شاركتها ترشّف الشاي آملًا أن يساعدني ذلك على التخفيف من إحساسي بالذَّنب بسبب حبِّي لزهرة.

– 8 –

توقَّفت عن تعليم زهرة اللُّغة العربيَّة لبضعة أسابيع بعد أن وقعت في حبِّها. ولم أستأنف ذلك إلَّا حين صرتُ قادرًا على التَّحكُّم في نفسي. خلال هذه الأسابيع، لم يبدر من زهرة ما يدلّ على أنَّها انتبهت إلى ما حدث لي، أو هذا ما خيَّل لي على الأقلّ. ظلَّت تأتي كالعادة كلّ أسبوع إلى البيت لتنظيفه. وفي كلِّ مرَّة، أقدِّم لها ذريعة لامتناعي عن تعليمها. إرهاق. ضيق الوقت. انشغال بأمر مهمّ..

أصبحت زهرة أشدّ تحمُّسًا للدرس من السَّابق. التوقُّف المفاجئ زاد من رغبتها في التَّعلُّم. بعد الانتهاء من تنظيف البيت، نلتقي كالعادة حول الطاولة في الصالون. إلَّا أنَّني لم أعد أجلس بالقرب منها كما في الدُّروس السَّابقة، وإنَّما مقابلها تمامًا.

كنت أريد أن أبتعد عنها قدر الإمكان، لئلّا تلمس ذراعي ذراعها أو تصطدم قدمي بقدمها، أو حتّى أشمّ رائحتها. لم أعد أسترق النَّظر إلى صدرها أو زندَيْها العاريَيْن أو إبطَيْها حين تكون منهمكة في الكتابة.

صرت أيضًا أقلّ تلقائيَّة وأكثر حذرًا وبرودًا معها من دون أن أكون قاسيًا. لكن في الآن ذاته، كنتُ حريصًا على أن أظلّ مهذَّبًا كالعادة، وعلى أن أعاملها باحترام. وفي فترة، بلغ هذا الحذر ذروته لدرجة أنِّي أصبحت أحسب حساب كلّ حركة أقوم بها، وأفكِّر في كلِّ كلمة أتفوَّه بها. ومن حسن الحظّ أنَّ هذه الفترة كانت قصيرة جدًّا. وفي الحقيقة، لم أكن صادقًا في سلوكي هذا. كنت أتظاهر بذلك. كنت أمثِّل دورًا. لم يكن حذري وبرودي سوى قناع أخفي به حبِّي لها. لقد التجأتُ إليه

لكي أحصِّن نفسي أيضًا وأحميها. كنت أخشى أن تستسلم في لحظة ضعف إلى نداء الشهوة. في الواقع، كنت خائفًا من نفسي أكثر ممَّا كنت خائفًا من زهرة.

وخلافًا لما كنت أنتظر، لم تُبدِ زهرة أيّ ملاحظة، ولم تُظهِر أبدًا ما يدلّ على أنَّها منزعجة من سلوكي. وعلى أيِّ حال، كنت قد فكَّرت مليًّا في المسألة، ووجدت ما يجب أن أجيب به لو سُئِلْتُ عن ذلك. وهو أنَّني تلقَّيت أخبارًا سيِّئة عن أختي المقيمة في إحدى القرى في تونس. من المؤكَّد أنَّها ستصدِّقني، إذ لا أحد بين المهاجرين يشكِّك فيما تقوله حين يتعلَّق الأمر بأخبار سيِّئة عن العائلة قادمة من بعيد.

غمرني سرور عميق حين تبيَّن لي بعد وقت قصير أنَّ حبِّي لزهرة لم يحلّ محلّ حبِّي لبريجيت، وهذا أكثر ما كنت أخشاه، وأنَّه لم يُضعِفه حتّى. والأجمل من ذلك، أنِّي أعيش الحبَّيْن بصدق كما لو أنَّ الأمر طبيعيّ جدًّا. هناك بالطبع اختلاف كبير بين حبِّي لبريجيت وحبِّي لزهرة. الأوَّل، هادئ رصين مريح، مثل أيّ حبّ يربط بين زوجَيْن يعيشان معًا منذ أعوام طويلة وتقاسما الكثير من الأشياء ومرَّا بكثير من المِحَن ولهما ابن. والثاني، حبّ طارئ نزق مربك، يشبه حبّ المراهقين.

لقد أفلحت في تجاوز محنتي إلى حدٍّ بعيد. وها أنا الآن مثل ملك. لي امرأتان رائعتان أحبّهما؛ إحداهما فرنسيَّة والأخرى عربيَّة. لم يخطر ببالي قطّ أنِّي سأجد نفسي، وأنا في الستِّين في وضع ممتاز كهذا. لا يهمّ إن كان حبِّي للثانية سريًّا أفلاطونيًّا. بل يجب أن يبقى هكذا. من مصلحتي ومن مصلحة زهرة، بل ومن مصلحة أسرتَيْنا أيضًا، ألَّا يتطوَّر هذا الحبّ وأن يبقى عذريًّا وسرِّيًّا.

أمَّا لعبة الغواية بيني وبين زهرة، فهي شيء آخر لا علاقة له بهذا الحبّ. كنت موقنًا من أنَّها ستتواصل بالتوازي مع هذا الحبّ من دون أن تؤثِّر فيه أو تتأثَّر به. لقد مضى على بدايتها وقت طويل. ولم تشكِّل أيّ خطر، لا عليَّ ولا على زهرة، فكلانا يعرف أنَّها مجرَّد لعبة ممتعة يمارسها شخصان متقدِّمان في السنّ ليتسليَّا، وربَّما ليقاوما الإحساس بالكبر. وكلانا يعرف أيضًا أنَّ لهذه اللُّعبة حدودًا لا يمكن تجاوزها.

لا أنكر أنِّي اشتهيت زهرة، وخاصَّة في بداية انخراطنا في هذه اللُّعبة، فأنا لست ملاكًا. لكنِّي أفلحت في السَّيطرة على شهوتي هذه، بل استطعت أن أجعل منها حلمًا مثل كلّ الأحلام الجميلة

الأخرى التي أعرف أنَّها لن تتحقَّق ولا أريد لها في الحقيقة أن تتحقَّق يومًا ما. جميل أن يعيش المرء ـ خاصَّة إن بلغ العمر الذي بلغتُه ـ أحلامًا من هذا النوع. بفضلها، يكسر الرتابة القاتلة لكي يظلّ للحياة أو ما تبقَّى منها معنى ما.

علاقتي بزهرة ستتَّخذ منحًى آخر، يصعب التكُّهن بتداعياته لو حاولت أن أدفعها للاستجابة لشهوتي. وعلى أيِّ حال، فإنّ زهرة ليست من هؤلاء النساء الخفيفات اللَّواتي يقبلن بسهولة القيام بأمور من هذا النوع. صحيح أنَّها امرأة مثل كلّ النساء، لها قلب يخفق ولها رغبات، وهي قد تضعف في لحظةٍ ما. هذا ما يقوله المنطق. لكنِّي أقنعت نفسي بأنَّها امرأة من طينة خاصَّة، لكيلا ينهار حلمي.

علاقتي أيضًا ببريجيت شهدت تغيُّرًا في تلك الفترة. لكن في اتِّجاه معاكس. أصبحتُ أكثر لطفًا في تصرُّفاتي معها. وفي الآن ذاته، كنت شديد الحرص على ألَّا أبالغ في ذلك. حاولت أن أكون طبيعيًّا قدر المستطاع. إنَّ انتقال الزوج المفاجئ إلى سلوك رائع يدفع الزوجة حتمًا إلى طرح بعض التساؤلات، خاصَّة إن لم تكن هناك دوافع واضحة ومقنعة لهذا الانتقال.

وبالرَّغم من كلِّ الاحتياطات، لاحظت بريجيت هذا التغيُّر في سلوكي. ذات يوم، عندما عادت من العمل، قبَّلتها قبلة أطول من العادة. إنَّها تحبّ أن أقبِّلها عند رجوعها إلى البيت. ولذلك، حين أريد أن أعبِّر لها عن انزعاجي منها أو عدم رضاي عنها لسببٍ ما، أرفض تقبيلها. لو توقَّف الأمر عند هذا الحدّ، لما لاحظت شيئًا. لكن لا أدري لماذا، حالما انتهت من غسل يدَيْها ونزع حذائها، وهو أوَّل ما تقوم به حين تعود إلى البيت، جلستُ بالقرب منها وأمسكتُ بيدها ورحتُ أداعبها بحنوٍّ كما كنت أفعل في الأيَّام الأولى من تعرُّفي عليها. حين انتبهتُ إلى أنَّني أبالغ، لم يَعُد ممكنًا أن أتراجع عن ذلك، فواصلت المداعبة. ولا بدَّ أن أشير هنا إلى أنَّ لبريجيت يدَيْن جميلتَيْن. وهي تحبّ أن أداعبهما. والحقيقة، أنِّي أنا أيضًا أجد متعة في ذلك، لأنِّي أرى أنَّ اليديْن هما من أجمل ما يوجد لدى المرأة. هما اللَّتان تحدِّدان مدى أنوثة المرأة. إذا أردت أن تعرف مقدار أنوثة امرأة، فانظر إلى يدَيْها. وأجمل ما في اليدَيْن الأصابع. وعليَّ أن أعترف بأنَّ يدَيْ زهرة ليستا جميلتَيْن، وأصابعها خشنة. لكنّ هذا طبيعيّ، فكيف ننتظر أن نجد يدَيْن جميلتَيْن لدى خادمة في البيوت؟! استسلمت بريجيت لمداعباتي. بغتة، سحبت يدها، وسألتني:

ـ هل أنت بخير؟

تظاهرتُ بأنِّي أجد سؤالها طبيعيًّا. زوجة تسأل زوجها الذي يحبُّها وتحبُّه عن حاله بعد عدَّة ساعات من الفراق. ما المشكلة في ذلك؟

قلتُ بنبرة هادئة جدًّا:

ـ نعم.. أنا بخير..

خَيَّم الصَّمت. أخشى الصَّمت الذي يأتي بعد حوار من هذا النوع. ولكيلا يظهر عليَّ ما يمكن أن يشي بحالتي الداخليَّة، سألتها:

ـ وأنتِ؟

لم تردّ على سؤالي. ضيَّقت عينَيْها وابتسمت ابتسامة خفيفة، كما تفعل حين لا تصدِّق ما أقول لها. وبعد لحظة طويلة، سألتني بشيء من الجدّ:

ـ لديك مشكلة؟

ـ مشكلة؟..

ـ آ.. نعم.. في الشغل مثلًا؟

ـ أبدًا.. وماذا يمكن أن يحدث لي في الشغل؟..لا شيء.. علاقتي بإدارة الجامعة جيِّدة.. زملائي يحترمونني مثلما أحترمهم.. وطلَّابي يحبُّونني..

ـ لا أدري.. أحسّ أنَّك غير طبيعيّ..

ـ كيف غير طبيعيّ؟

ـ منذ فترة لم تلمسني بكلِّ هذا الحنوّ..

ثمّ أضافت، عندما بقيت صامتًا أفكِّر فيما ينبغي أن أقوله:

ـ أرى أنَّك لطيف جدًّا معي..

كدتُ أقول لها لقد كنتُ دائمًا لطيفًا معك. إلَّا أنَّني لم أفعل حين تذكَّرت كيف تصرَّفت معها أثناء بعض الخصومات التي جدَّت بيننا. لست بطبعي عنيفًا، ولا أميل إلى الخصومات، وإن كنت قد تخاصمت عدَّة مرَّات مع بريجيت. ومن لا يتخاصم مع زوجته؟ ومعظم هذه الخصومات هي عن مسائل تتعلَّق بحياتنا المشتركة، وتحديدًا بابننا سامي، خاصَّة عندما كان صغيرًا.

كنَّا متَّفقيْن على أمور كثيرة تخصّ تربيته. بريجيت متفتِّحة. لم تمانع أن أعلِّمه العربيَّة أو شيئًا من تاريخ العرب أو مبادئ الإسلام الكبرى. لم تمانع أن أسجِّله في قنصليَّة تونس في باريس لتكون له جنسيَّة تونسيَّة إلى جانب جنسيَّته الفرنسيَّة، بل إنَّها كانت متحمِّسة لذلك. لم تمانع أن أذكِّره دائمًا بأنَّه تونسيّ أيضًا، وأن أحدِّثه باستمرار عن بلده الآخر تونس وعن القرية التي ولدتُ فيها.

وبلغ هذا التفاهم ذروته حين قَبلتْ وسامي لا يزال في الرَّابعة من عمره أن نسافر نحن الثلاثة إلى هذه القرية في عزّ الصيف، بل وأن ننام هناك بضع ليال في بيت أختي على حصر مفروشة على الأرض؛ إذ لم يكن هناك في ذلك الوقت أيّ سرير في كلِّ بيوت القرية. لم تكن هناك كهرباء أيضًا، ولا حنفيَّات ولا ماء ساخن ولا حمَّام، ولا حتّى مرحاض. كان الناس يقضون حاجتهم في الخلاء.

أذكر أنَّه تملَّكتني آنذاك رغبة قويَّة في أن يرى سامي، وهو في تلك السنّ المبكِّرة، القرية التي نشأتُ فيها، وأن يشمّ هواءها ويطأ أرضها بقدمَيْه الصَّغيرتَيْن، ويلعب ويتمرَّغ على رملها وعشبها. كأنَّه كان لا بدّ أن يحدث ذلك لكي أحسّ أنَّه تونسيّ وأنَّه ابني حقًّا. في تلك الفترة، كانت بريجيت تحبّ تونس حتّى في فصل الصَّيف. لم تكن تشتكي هي وسامي كما الآن من ضجيج مدنها وحرِّها الشديد.

لكن كنَّا نختلف حول أمور أخرى. وموضوع الختان كان أهمُّها. عندما عبَّرت لها عن رغبتي في أن نختن سامي، رفضت ذلك رفضًا شديدًا في البداية. لن أسمح لك ولا لغيرك أن يقطع ذكر ابني الصَّغير بمقصّ، هكذا كانت ترِدّد كالمجنونة. كلّ الحجج التي قدَّمتها إليها لم تقنعها. أحيانًا، لم تكن تريد حتّى الاستماع إليها. ولم تقبل أن نختنه إلَّا عندما أريتها مقالًا عثرتُ عليه بالصُّدفة في مجلَّة طبِّيَّة فرنسيَّة يُبيِّن فوائد الختان الصحِّيَّة، وأخبرها طبيب متخصّص بأنَّ العمليَّة بسيطة جدًّا ولا تشكِّل أيّ خطر على سامي.

لكن ينبغي أن أعترف بأنِّي أتصرَّف أحيانًا أثناء هذه الخصومات تصرُّفًا لا يليق بي وأندم عليه فيما بعد. طبعًا لا أضربها أو أشتمها أو أهينها. ولا أعتقد أنِّي سأفعل هذا يومًا ما، وإنَّما أصرخ في وجهها. وأحيانًا أفعل هذا بصوت عالٍ جدًّا. وهذا أحد عيوبي. وبريجيت لا تحبّ الصراخ إطلاقًا. حين يصرخ عليها أحد، ترتعش كلّ أعضاء جسدها. أعتقد أنَّ أباها كان يصرخ كثيرًا على أمِّها. وقد كان صراخه هذا يثير فيها الرُّعب. لم تقل لي ذلك. لكنِّي استنتجته من القليل الذي روته لي عن طفولتها، فهي ليست من اللَّواتي يفعلن هذا دائمًا وبسهولة.

ـ هل تريدين ألَّا أداعب يدك بحنوّ في المستقبل؟

لم تجبني. نهضت وتوجَّهت إلى المطبخ.

– 9 –

الإحساس بالارتياح والزهو الذي غمرني بعد أن تبيَّن لي أن بإمكاني أن أحبّ امرأتَيْن في آن واحد من دون أن يسبِّب لي ذلك أيّ مشكلة، بدأ يخفّ بعد أسابيع قليلة. فقد حدثت لي مع منصور واقعة لم أكن أتوقَّعُها وأحدثت توتُّرًا في علاقتنا. وسببُها هو زهرة. ذات صباح، بينما كنت منهمكًا في إعداد الدرس الذي سأُلقيه على طلَّابي في فترة ما بعد الظهر، سمعتُ طرقًا ضعيفًا متردِّدًا على الباب. وفيما كنتُ أتساءل عن الشخص الذي يمكنه أن يطرق بابي في مثل ذلك الوقت الذي لم أكن أنتظر فيه أحدًا، تناهى إلى سمعي صوت أنثويّ خافت. نهضتُ وتوجَّهتُ إلى الباب، ثمّ تطلَّعتُ من خلال ثقبه الصَّغير إلى الخارج.

ـ مسيو عاشور.. أنا جارتك.. مدام ألبير..

من النادر أن تطرق مدام ألبير بابي. وعندما تفعل ذلك، فلكي تسلِّمني طردًا لي أو لبريجيت سلَّمها إيَّاه ساعي البريد، وهذا ما يحدث عندما لا نكون في البيت. وهي إحدى المناسبات القليلة التي نتبادل فيها بضع كلمات، باستثناء طبعًا التحيَّة حين نلتقي أمام بابي شقَّتَيْنا أو في مدخل العمارة. علاقتنا ودِّيَّة. نحترمها وتحترمنا. لكنَّها تقف عند هذا الحدّ. لم يحدث قطّ أن دخلنا شقَّتها. ولم تطأ قدماها أبدًا شقَّتنا. كنتُ أستغرب ذلك في البداية. لكنَّ بريجيت تعتبر الأمر طبيعيًّا جدًّا.

بل إنَّها ترى أنَّ من الأفضل لها ولنا أن تظلّ علاقتنا هكذا، لأنَّ احترام الجار يقتضي ألَّا نهتمّ به وألَّا نزجّ بأنفسنا في حياته الخاصَّة التي تعتبرها مثل كلّ الفرنسيِّين شيئًا مقدَّسًا.

حالما فتحت الباب، قالت لي بنبرة مضطربة:

ـ زهرة تتخاصم الآن مع زوجها..

فوجئتُ بما قالته لي. كنتُ أنتظر أن تسألني في أمر عاجل أو تطلب منِّي شيئًا ما. ولم أفهم جيّدًا لماذا تقول لي هذا. أضافت بتلعثم:

ـ أخبرتني بهذا بالتلفون منذ لحظة..

رفعت رأسها صوب الطوابق العليا حيث توجد شقَّة زهرة، ثمّ نظرت حولها قبل أن تقول بصوت خافت، كأنَّها تخشى أن يسمعها أحد غيري:

ـ أخاف أن يضربها..

لم يُحدِث فيَّ كلامها ما كانت تتوقَّعه على ما يبدو. فأنا أعرف أنَّ بعض الرِّجال العرب لا يتورَّعون عن ضرب نسائهم حين يتخاصمون. وعلى أيّ حال، ضرب النساء من قبل الرجال لا يقتصر على العرب. النساء يتعرَّضن للضرب في كلِّ مكان في العالم، حتّى في البلدان المتحضِّرة وفي أكثر البلدان احترامًا لحقوق المرأة، فقد اكتشفت منذ فترة أنَّ الفرنسيِّين أيضًا يضربون نساءهم. وقرأتُ ذات يوم في جريدة فرنسيَّة خبرًا مفاده أنَّ الإحصائيَّات تثبت أنَّ امرأة فرنسيَّة تموت جرَّاء الضرب المبرّح من قِبَل زوجها أو عشيرها أو حبيبها كلّ ثلاثة أيَّام! صدمني الخبر. ولم أصدِّقه. إلَّا أنَّ بريجيت أكَّدته لي.

ـ هل يمكنك أن تفعل شيئًا؟..

مططت شفتيّ للتَّعبير عن عجزي، فسألتني:

ـ أنت تونسيّ مثله؟.. أليس كذلك؟

ـ نعم..

ظلَّ نظرها مُركَّزًا عليَّ للحظة، كأنَّها تنتظر منِّي أن أضيف شيئًا آخر. ثمّ قالت:

ـ يمكن أن يفهم عليك أفضل ممَّا يفهم عليَّ..

لم أفكِّر في هذا إطلاقًا، بل لم يخطر ببالي حين طلبت منِّي مدام ألبير أن أفعل شيئًا، أنَّها توجَّهت إليَّ بصفتي تونسيًّا. كنت أتصوَّر أنَّها التجأت إليَّ لأنِّي أقرب جار إليها، وأيضًا لأنَّها تعرف أنَّ زهرة تشتغل عندنا كخادمة. هذا كلّ ما في الأمر.

أعترف أنَّني انزعجت قليلًا. وسبب انزعاجي هذا، أنَّ مدام ألبير وضعتني من دون قصد في الخانة نفسها مع منصور سيِّئ السُّمعة في العمارة. كأنَّ لا فرق بيننا بما أنَّنا تونسيَّان. نسِيَتْ أنَّني أستاذ أدرِّس في الجامعة، وأنَّ كلّ سكَّان العمارة يحترمونني ويعاملونني تمامًا مثلما يعاملونها.

كان هناك ما يكفي من الضوء لأرى ملامح وجهها بدقَّة. ولأوَّل مرَّة، تتاح لي فرصة للنَّظر إلى وجهها بإمعان. لقاءاتنا ـ إن صحَّت هذه التسمية ـ هي في العادة من القصر بحيث لا تسمح لي بالتمعُّن في وجهها كما حدث في هذا الصباح. أدركتُ أنَّها كانت جميلة في شبابها، وإن بدا لي أنفها مقوَّسًا قليلًا ممَّا جعلني أتساءل لأوَّل مرَّة عمَّا إذا كانت جارتي، التي لا يفصل بابي عن بابها سوى متر واحد، يهوديَّة. استبعدتُ ذلك. لو كانت يهوديَّة لانتبهت زهرة إلى ذلك ولأخبرتني، فهي تحدِّثني عنها أحيانًا. وعلى أيّ حال، أن تكون يهوديَّة، فهذا لن يغيِّر في الأمر شيئًا بالنِّسبة إليّ، فهي جارتي وأنا أحترمها. وكلّ سكَّان العمارة يقدِّرونها.

ـ صحيح.. يمكن أن يفهم عليَّ..

عندما قلت هذا، حرَّكت مدام ألبير رأسها ثمّ عادت إلى شقَّتها. بقيت مسمَّرًا في مكاني أفكِّر فيما يجب أن أفعله في تلك اللَّحظات. تمنّيتُ لو لم أفتح الباب. الآن لا يمكنني أن أتصرَّف كأنَّ شيئًا لم يكن. صعدتُ قليلًا الدرج، ثمّ توقَّفت حين تناهى إليَّ صرير باب يفتح ثمَّ يغلق، أعقبه وقع خطوات على الدَّرج. كنتُ على يقين من أنَّ الباب هو لشقَّة في الطابق الخامس.

فجأة، شاهدت مسيو غونزاليس الذي يُقيم وحده منذ أن توفِّيت زوجته في شقَّة تقع مقابل شقَّة زهرة. حالما رآني، ابتسم لي وحيَّاني بحرارة كالعادة، ثمّ واصل نزول الدرج من دون أن يسألني عمَّا أفعل هناك. واصلتُ صعود الدرج حتّى وصلت إلى شقَّة زهرة. لم أقف أمامها تمامًا. تركت مسافة خطوة بيني وبينها. كان الباب مواربًا. لم يكن في نيَّتي إطلاقًا أن أدخل. لم يسبق أبدًا أن دخلت شقَّتهم، بل لم يحدث أن اقتربت منها إلى هذا الحدّ. كنت مضطربًا. لا أدري ماذا يجب أن أقول أو أفعل لو ظهرت فجأة زهرة ورأتني واقفًا أمام باب شقَّتها. مددت رأسي بحذر وأنصتّ. لم أسمع حديثًا ولا بكاء ولا صراخًا. كان هناك صمت مريب. كأنَّ الشقَّة خالية. رحت أتساءل عمَّا إذا كانت مدام ألبير أساءت فهم ما قالته لها زهرة في التلفون.

فجأة، رأيت منصور يتقدَّم نحو الباب. كان شعره غير ممشوط كالعادة. إلَّا أنَّ ما استرعى انتباهي هو أنَّ قميصه كان مفتوحًا، كاشفًا عن صدر بارز الضلوع. خُيِّل إليَّ أنَّه كان يمسك بشيء ما وأسقطه من يده حالما وقعت عيناه عليّ. عصا أو قضيب حديديّ أو حزام أو شيء من هذا القبيل. لم يكن لديَّ ما يكفي من الوقت لأتراجع. من الواضح أنَّه فوجئ كثيرًا بوجودي هناك.

تذكَّرتُ ما كان يُشاع عنه من أنَّه كان عنيفًا وسكِّيرًا قبل تعرُّفه على زهرة وزواجه منها، لذا، ساورني قليل من الخوف حين حدَّق فيَّ بعينَيْن جامدتَيْن تعكسان الحيرة والارتياب. كان لا بدّ أن أقول شيئًا ما يبرِّر وجودي على بعد خطوة واحدة من باب شقَّته. استجمعتُ كلّ ما لديَّ من شجاعة وسألته:

ـ لا بأس؟

حرَّك رأسه حركة غامضة. لكنَّه لم يَنْبس بكلمة. بدا لي أنَّه لم يسمع جيّدًا ما قلته. تردَّدت قليلًا قبل أن أعيد السُّؤال وأنا أحاول أن أبتسم:

ـ لا بأس؟.. هل أنتم بخير؟

ـ نعم..

ومن جديد، هزّ رأسه قبل أن يضيف بصوت عال:

ـ نحن بخير..

غمرني فرح عميق. لا لأنَّني أغثت زهرة وحميتها وهو ما كنت أودّ القيام به حين صعدت إلى بيتها، بالرَّغم من أنِّي كنتُ أجهل سبب الخصومة ومَنْ الظالم فيها والمظلوم، وإنَّما لأنَّني لم أضعف في اللَّحظة الحاسمة، ووجدت ما يكفي من الجرأة لأطرح على منصور السُّؤال. لو لم أفعل هذا، لظلَّ ضميري يعذِّبني. والأجمل من هذا، أحسست أنَّ كلَّ شيء تمّ بهدوء. بَيْد أنَّ هذا الشعور بالفرح سرعان ما تلاشى عندما سمعته يسألني في اللَّحظة التي استدرت فيها لنزول الدرج والعودة إلى شقَّتي:

ـ ولكن.. لماذا تسألني؟

تفاقم ارتباكي. لأوَّل مرَّة يخاطبني بلهجة فيها شيء من الحدَّة. بدا لي آنذاك أنَّني أمام رجل قادر على أن يصبح عنيفًا في أيّ لحظة. لم أجبه وإنَّما ابتسمتُ له. كنت أتصوَّر أنَّ هذا كان كافيًا. إلَّا أنَّه لم يبتسم لي. قلتُ بلهجة أردتها أن تكون هادئة قدر المستطاع:

ـ سمعت ضجيجًا.. ظننتُ أنَّ مصدره الطابق الخامس..

لم يتوقَّف عن التَّحديق فيّ. كانت هناك هالتان داكنتان حول عينَيْه كأنَّه لم ينم البارحة. وفي انحناءة إلى الأسفل، انتبهتُ إلى أنَّه حافي القدمَيْن.

ـ ضجيج؟..

ـ نعم..

ـ في الطابق الخامس؟

ـ أعتقد..

أيّ نوع من الضجيج؟..

ـ لا أدري.. على أيِّ حال لا يهمّ..

أضفت مبتسمًا قبل أن أغادر المكان:

ـ يبدو أنَّه في طابق آخر..

لا أدري وقع ما قلته عليه، فأنا لم ألتفت إليه ولم أودِّعه حتّى. كلّ ما كنت أريده هو أن أغادر المكان فورًا وأتخلَّص من هذه الورطة التي وجدت نفسي فيها. نزلتُ الدرج بسرعة. وحين بلغت الطابق الأوَّل، شاهدت مدام ألبير في مدخل شقَّتها.

كانت تحاول على ما يبدو الإنصات على الرَّغم من طرشها إلى ما دار بيني وبين منصور من حوار لكي تَعرف ما يحدث لخادمتها. تطلَّعَت إليَّ بعينَيْن واسعتَيْن أملًا في أن أخبرها. إلَّا أنَّني لم أقل لها أيّ شيء. دلفتُ إلى غرفتي وأغلقت الباب فورًا.

تمدَّدتُ على الكنبة وأغمضتُ عينيّ.

عندما استعدتُ كامل هدوئي، تبيَّن لي أنَّني ارتكبتُ خطأ. سيُدرك منصور بالتأكيد أنَّني كذبت عليه، فهو ليس بأبله. ندمتُ على أنَّني تصرّفتُ هذا التصرُّف الأخرق. كان من المفروض أن أقول له الحقيقة. أردت كجارٍ تونسيّ يحبّ الخير لجاره التونسيّ التدخُّل في خصومته مع زوجته. والهدف إصلاح ذات البين وتجنُّب الفضائح، إذ لا يجوز أن يتخاصم التوانسة أمام الفرنسيِّين بهذه الطريقة التي ستشوِّه سمعتهم وسمعة كلّ العرب والمسلمين في فرنسا المشوَّهة أصلًا. لو قلت له هذا لربَّما تقبَّل الأمر. ومن يدري ربَّما يقبل أن أكون وسيطًا بينه وبين زهرة.

– 10 –

لم تشر زهرة إلى ما حدث بينها وبين منصور في أوَّل لقاء لي بها على انفراد في شقَّتي.. أكثر من هذا، لم يبد عليها، سواء أثناء الساعتَيْن اللَّتَيْن أمضتهما في الخدمة، أو الدَّقائق العشر التي استغرقها درس العربيَّة، ما يدلّ على أنَّها حزينة أو كئيبة أو حتّى أنَّها تخاصمت مع زوجها. كانت لطيفة مهذَّبة كالعادة. أدَّت مهمَّتها على أكمل وجه، وكانت شديدة التَّركيز أثناء الدَّرس.

لم يظهر عليها أيضًا ما يوحي بأنَّها على علم بأنِّي أتيتُ إلى شقَّتهم أو أنَّها سمعت أيّ شيء من الحوار الذي دار بيني وبين زوجها. لم أستغرب ذلك بالرَّغم من أنَّ الباب كان مواربًا. ربَّما كانت قد حبست نفسها أثناء الخصومة داخل إحدى الغرف أو في المرحاض أو غرفة الاستحمام هربًا من منصور. ومن المحتمل جدًّا أنَّ زوجها لم يُخبرها بصعودي إلى الطابق الخامس والوقوف أمام باب بيتهم.

انتظرتُ هذا الموعد بفارغ الصبر لتُحدِّثني عمَّا جرى قبل أيَّام. لقد التقيتها بالطبع في أمكنة عديدة قبل أن يحين هذا الموعد. مدخل العمارة. أمام المصعد. على الدرج. كانت لقاءات عابرة سريعة، وأحيانًا بحضور بعض سكَّان العمارة. لكنِّي لم أسألها عمَّا جرى لها. أرجأتُ السُّؤال إلى اليوم الذي تأتي فيه إلى بيتي. كنت أتوقَّع أن تحدِّثني من تلقاء نفسها عمَّا جرى، أو على الأقلّ أن تشير إلى ذلك. لكنَّها لم تفعل.

أصبتُ بخيبة أمل، فقد كنت مُتشوِّقًا لمعرفة ما حدث بالضبط، خاصَّة أنَّني فكَّرتُ في لحظة ما أنَّ الخصومة قد تعنيني أيضًا على نحوٍ ما، فقد خطر ببالي أنَّ سببَها يمكن أن يكون علاقتي الودِّيَّة بها. هل لاحظ منصور أنَّ زهرة تتحدَّث عنِّي باحترام وإعجاب؟ لعلَّها استسلمت لأحاسيسها

وبالغت قليلًا في ذلك، ممَّا أثار غيرته وحسده. ومن يدري؟ ربَّما فعلت ذلك عمدًا لكي تبلِّغه رسالة ما أو تسجِّل موقفًا ما، أو بكلّ بساطة تنتقده بصورة غير مباشرة. الكثير من النساء العربيَّات وحتّى الأوروبيَّات لا يتجرَّأن أحيانًا على مصارحة أزواجهنَّ، فيلجأن إلى مثل هذه الحيل. كلُّ شيء ممكن بما أنَّني لا أعرف طبيعة علاقتهما.

بيد أنَّني ازددت في الآن ذاته إعجابًا بها وبقدرتها على التكتُّم على أمور لها علاقة بحياتها الخاصَّة. إنَّها من دون شكّ امرأة قويَّة قادرة على أن تحافظ على أسرارها لحماية أُسرتها وسُمعتها. امرأة حكيمة لا ترغب في نشر غسيل عائلتها الوسخ. ولكن ماذا لو كنت أتوهَّم كلّ هذا؟ ماذا لو كانت زهرة امرأة ضعيفة تخشى زوجها وتستسلم لإرادته، بل وتطيعه في أغلب الأمور باعتباره رجلًا ورئيس العائلة، مثلما يحدث مع الكثير من النساء العربيَّات، خاصَّة اللَّاتي ينتمين إلى وسطها الاجتماعيّ؟

تطلَّعتُ خلسة عدَّة مرَّات إلى وجهها وذراعَيْها وعنقها، باحثًا عن كدمة أو جرح أو خدش أو شيء من هذا القبيل يدلّ على أنَّها تلقَّت ضربًا ما. لكن لم أعثر على أيّ شيء. ومع ذلك، لم أشكّ لحظةً واحدة في أنَّها تخاصمت مع زوجها. لا يمكن أن تخترع مدام ألبير شيئًا كهذا. صحيح أنَّها متقدِّمة في السنّ، لكنَّها لم تخرف بعد. ثمّ إنَّ الحال التي كان عليها منصور حين خرج من الشقَّة تدلّ على أنَّ الخصومة حدثت فعلًا. وأمَّا ما يجعلني أميل إلى أنَّه ضربها، فهو أنَّه أسقط من يده شيئًا كان يُمسك بها حين وقعت عيناه عليَّ.

بعد تردُّد طويل، قرَّرت ألَّا أسألها وأن أتصرَّف كأنَّ شيئًا لم يكن. وما دخلي أنا في النهاية إن كانت هي تقبل ذلك؟ قلتُ في نفسي. إنَّها امرأة ذكيَّة وتعرف مصلحتها أكثر من أيّ شخص آخر. لماذا أدسّ أنفي في مسألة خطرة كهذه إذا كان منصور وزهرة متفاهمَيْن؟ وقد أعقِّد الأمور بينهما إن أصررتُ على معرفة ما جرى. حقًّا لا أحد يعرف ما الذي يُمكن أن يحدث بين زوج وزوجته، كما تقول بريجيت.

أخفيت الحادثة عن زوجتي لبضعة أيَّام، ثمّ رويتها لها. كان في نيَّتي أن تبقى سرًّا بيني وبين عائلة منصور. إنَّهم توانسة مثلي. ومن العيب أن أفضحهم وأتحدَّث عنهم بسوء لشخص آخر، حتّى لو كان زوجتي. بَيْد أنِّي لم أفلح في ذلك.

رويتُها لها ذات سبت ونحن نتناول الشاي بالكعك. كان مزاجُها رائقًا كما في كلِّ سبت، وهو اليوم الذي تفضِّله على كلّ الأيَّام لأنَّه بداية عطلة نهاية الأسبوع. فعلتُ ذلك بهدوء. ومن دون تهويل أو استهزاء. كنتُ أنتظر أن تنتقد منصور أو تسخر منه وأن تنتصر لزهرة، وهذا ما كنتُ أتمنَّاه في سرِّي. لكنَّها لم تفعل. بل لم تتفوَّه بكلمة. كلّ ما فعلته هو أنَّها مطَّت شفتَيْها، ثمّ واصلت الأكل.

لكن في اللَّيل، وبينما كنَّا مُتمدِّدين على الفراش في غرفة النوم، فوجئتُ بها تسألني بشيء من الاهتمام بعد أن جرَّت جسدها صوبي:

ـ ولماذا تشاجرا؟

لم يمضِ وقت طويل على التحاقها بي في الفراش. لذا لم يكن جسدها دافئًا. اصطدمت ركبتي بركبتها وأنا أضمّها إليَّ لأنقل إليها قليلًا من دفء جسدي.

ـ عمَّن تتحدَّثين؟

كنت قد خمَّنت قصدها. لكنِّي أردت أن أتأكَّد.

ـ أتحدَّث عن زهرة ومنصور.

بريجيت تحبّ أن نتحدَّث قليلًا قبل أن نستسلم للنوم. أنا أيضًا أحبّ هذا. الحديث بصوت واطئ على الفراش في الظلام طريقة رائعة لجلب النوم. واللَّحظات التي تسبق النوم هي من أمتع اللَّحظات التي نقضيها معًا حين نكون غير متخاصميْن وفي مزاج رائق. وعادة، نتحدَّث عن أمور غير جدِّيَّة. حادثة طريفة وقعت لنا مع زميل أو زميلة في مكان الشغل. مشهد لافت في الشارع أو المترو أو الباص. وأحيانًا، نكت أو حكايات طريفة قرأناها أو سمعناها. لذا استغربت أن تسألني عن شجار زهرة ومنصور في مثل ذلك الوقت الحميميّ.

ـ لا أعرف السَّبب..

ـ ولكن هل أنت متأكِّد من أنَّهما تشاجرا؟

ـ نعم..

ـ وكيف عرفت؟

ـ مدام ألبير هي التي أخبرتني..

ـ مدام ألبير!

ـ نعم..

ـ وكيف عرفت مدام ألبير؟.. إنَّها لا تكاد تغادر بيتها..

ـ زهرة هاتفتها وأعلمتها..

ـ كلّ الأزواج يتشاجرون..

التزمتُ الصمت. لم تكن لديَّ آنذاك أيّ رغبة في أن نتحدَّث في الموضوع. كنت أريد نسيانه. لكن بريجيت تريد العكس على ما يبدو، فقد سألتني بنبرة حادَّة:

ـ وما دخلك أنت في الموضوع؟

ظللتُ صامتًا بالرَّغم من أنَّني لم أفهم لماذا خاطبتني بهذه الحدَّة. أضافت بالنبرة نفسها:

ـ لا أدري لماذا تهتمّ بهما إلى هذا الحدّ؟

أجبتها كمَن يدفع عن نفسه تهمة:

ـ لا أهتمّ بهما كثيرًا كما تقولين.. أهتمّ بهما قليلًا لأنَّهما من جيراننا.. وهما تونسيَّان مثلي.. وزهرة تعمل في بيتنا.. هذا كلّ ما في الأمر..

تساءلتُ للحظة عمَّا إذا كانت قد اكتشفت في حديثي شيئًا ما يفضح تعلُّقي بزهرة، وأرادت بأسئلتها هذه أن تقول لي إنَّها ليست مُغفَّلة. إلَّا أنَّني استبعدتُ ذلك، فبريجيت شجاعة وصريحة، وهي ليست في حاجة إلى مثل هذه الأساليب الملتوية.

لو اكتشفت حقًّا حبِّي السرِّيّ لزهرة، لفاتحتني في الموضوع من دون مواربة، ولهجرتني على الفور. لن تصدِّقني حتمًا حين أقول لها إنَّني لا أزال أحبُّها.

وحين تبيَّن لي أنَّ جسدها نال ما يكفي من الدفء، توقَّفت عن احتضانها، فابتعدت عنِّي ثمّ استلقت على جنبها مديرة لي ظهرها. وحالما أدرتُ لها بدوري ظهري سمعتُها تقول:

ـ عجيب أمرُكم أنتم العرب!

وبعد برهة، تابعت:

ـ كم تحبُّون الحديث عن بعضكم!

لم أردّ عليها بالرَّغم من أنَّني انزعجت. كنت أخشى إن فعلت أن تقول شيئًا آخر فأزداد انزعاجًا وربَّما أنفعل. وقد تنزعج بدورها. ومن المحتمل أن نتشاجر. لأوَّل مرَّة، تقول لي بريجيت كلامًا من هذا النوع. وما زاد في استغرابي أنَّها تبدو واثقة تمامًا ممَّا تقول. صحيح أنَّها تُبدي بين الحين والآخر ملاحظات عن العرب، لكنَّ ملاحظاتها تظلّ بريئة، وأحيانًا، تكون طريفة أو ساخرة، كتلك التي تتعلَّق بالطريقة التي ينطق بها بعض العرب الفرنسيَّة. والفرنسيُّون على أيّ حال مغرمون برواية القصص الساخرة عن المهاجرين، سواء كانوا عربًا أو سودًا أو آسيويّين، وحتّى عن الشعوب الأوروبيَّة القريبة منهم، بدءًا بجيرانهم البلجيكيّين بالرَّغم من احترامهم لهم.

وطبعًا، أنا موقن تمامًا من أنَّ بريجيت ليست عنصريَّة، بل إنَّ لديها ميلًا ما للأجانب. ولعلّ أكبر دليل على ذلك أنَّها قَبِلَت الزواج من عربيّ وأنجبت منه ابنًا. وهو أمر غير هيّن في بلدٍ سُمعة العرب فيه سيّئة منذ زمن بعيد. لكن لا بدّ من الإقرار بأنَّ ما قالته لا يختلف كثيرًا عمَّا يقوله العنصريُّون. إلَّا أنَّ صمتي لم يدفعها إلى التوقُّف عن الكلام كما كنت آمل.

ـ لديكم عقليَّة غريبة حقًّا.. أليس كذلك؟

فقدتُ آنذاك هدوئي ولم أعد قادرًا على التَّحكُّم في نفسي.

ـ لا أدري ماذا تقصدين بالضبط..

ـ أقصد أنَّكم تحبُّون أن تهتمُّوا بغيركم.. وأن تتحدَّثوا عنهم.. تحبّون أن تتلصَّصوا على بعضكم.. في كلِّ زيارة إلى تونس، ألاحظ هذا..

ـ لكن هذا لا يقتصر على العرب.. في كلِّ الشعوب تجدين أناسًا من هذا النوع.. ثمّ إنَّ الاهتمام بالآخر ليس سيّئًا دائمًا كما تظنّين..

كنت أنتظر أن تواصل في هذا المنحى. وكنت مستعدًّا للردّ عليها. لا يجوز السكوت عن كلام كهذا. لكنِّي فوجئت بها تقول وقد غيَّرت لهجتها:

ـ صحيح..

بعد لحظة طويلة، أرسلت يدها من خلف ظهرها من دون أن تغيّر وضعها. أمسكت بيدي وضغطت برفق على أصابعي قبل أن تسألني:

ـ أنت منزعج منِّي؟

ـ لا..

ـ متأكِّد؟

ـ نعم..

غمرني الارتياح. لم أكن أتوقَّع أن ينتهي حديثنا بهذه الطريقة. وما زاد في ارتياحي هو أنَّها سألتني عمَّا إذا انزعجتُ من كلامها. أحبّ أن تطرح عليَّ أسئلة من هذا النوع. يروق لي أن أراها تهتمّ بي إلى هذا الحدّ، فأنا في حاجة دائمة إلى عطفها. هي أيضًا في حاجة إلى عطفي. لكن أشعر في أعماق نفسي أنَّ حاجتي إليها أقوى من حاجتها إليَّ. ولا أدري لماذا. ربَّما يعود هذا إلى إحساسي بأنِّي أظلّ على الرَّغم من إقامتي الطويلة في بلدها أجنبيًّا. وربَّما يعود بكلِّ بساطة إلى عدم ثقة في نفسي.

وبينما كنت أتساءل عمَّا إذا كان ينبغي أن أقول لها كلامًا يبعث في نفسها إحساسًا شبيهًا بالارتياح الذي غمرني منذ حين، قالت:

ـ أحبُّك..

ومن جديد، ضغطت على أصابعي. لكن بقوَّة هذه المرَّة. ثمَّ أضافت:

ـ أحبُّك كثيرًا..

ـ وأنا أيضًا أحبُّك كثيرًا..

منذ عدَّة أيَّام، لم تقل لي ولم أقل لها هذا. في الأعوام الأولى من علاقتنا، كنَّا نقول هذا لبعضنا بعضًا كلَّ يوم. وليس مرَّة بل عدَّة مرَّات. في البداية، كنت أشعر بالحرج لأنِّي لم أتعوَّد على ذلك. ثمّ إنَّني كنتُ أرى أنَّ الأزواج والعشّاق في فرنسا ذكورًا وإناثًا، وحتّى العجائز منهم، يبالغون في الحديث عن حبِّهم وإظهاره للمحبوب. لا أجد أيّ جدوى للتذكير به في كلِّ لحظة. بل كنتُ أعتقد أنَّ تأثير هذه الكلمات على الآخر يكون أقوى وأجمل حين تُقال في فترات متباعدة. إلَّا أنَّني لم أقل ذلك أبدًا لبريجيت. ولا أظنّ أنِّي سأفعل هذا يومًا ما.

سحبت يدها وتكوَّرت داخل الغطاء. بَيْد أنَّني ظللت يقظًا منتبهًا وعلى استعداد للردّ على كلِّ ما يمكن أن تقوله لي بالرَّغم من أنَّني كنت أودّ الاستسلام للنوم. أصغيتُ طويلًا إلى تنفُّسها الذي بدأ ينتظم شيئًا فشيئًا. ولم أتأكَّد من أنَّ الحديث انتهى حقًّا وأنَّ هذه اللَّيلة مرَّت في النهاية بسلام، إلَّا حين بدأ شخيرها يتعالى.

– 11 –

كنت قد قرَّرت أن أنسى شجار زهرة ومنصور، وأن أتصرَّف وكأنَّ شيئًا لم يكن. اقتنعتُ أيضًا إلى حدٍّ بعيد بما قالته لي بريجيت من أنِّي أهتمّ بهما كثيرًا وأتدخَّل فيما لا يعنيني. إنَّ تعلُّقي السرّيّ بزهرة لا يمنحني حقّ التلصُّص عليهما أو يبرِّر كلّ هذا الاهتمام. لكنّ ما حدث في المرَّة التالية التي جاءت فيها زهرة لتنظيف البيت، جعلني أتراجع فورًا عن قراري هذا.

كانت زهرة ترتدي بلوزة واسعة. أثناء الدرس، حين انحنت على دفترها، ازدادت فتحة البلوزة عند الصدر انفراجًا. مددتُ عنقي صوبها تلقائيًّا، فرأيت الجرح. لم يكن كبيرًا لكنَّه واضح. كان قديمًا. قدَّرت أنَّه يعود إلى حوالي عشرة أيَّام؛ أي تقريبًا إلى الزمن الذي تخاصمَت فيه مع منصور. ولم أشكّ لحظة واحدة في أنَّه جرح سكِّين. اعتراني الارتباك، فنهضتُ. المسألة أخطر بكثير ممَّا كنتُ أظنّ. لو كانت آثار أصابع إثر صفعة أو آثار قبضة يد خلَّفتها لكمة لهان الأمر. لكنَّها سكِّين.

توجَّهتُ إلى المطبخ بعد أن طلبتُ منها أن تعيد كتابة بعض الجمل. اقتربتُ من النافذة ورحت أنظر إلى الشارع وأنا أتساءل عمَّا ينبغي أن أفعل. تذكَّرت حديثي مع بريجيت في غرفة النوم وعتابها لي، ثمّ الحوار القصير الذي دار بيني وبين منصور أمام باب شقَّته قبل أيَّام. وبعد تردُّدٍ قصير، قرَّرت أن أتدخَّل. لقد بلغ الأمر من الخطورة حدًّا لا يمكن السكوت عنه.

كانت لا تزال منهمكة في كتابة الجمل. تقدَّمت منها بخطى واثقة. وبدلًا من أن أجلس في مكاني مقابلها، وقفت خلفها. ثمّ انحنيت عليها. رفعت رأسها ونظرت إليّ. وبدون تردُّد، نزعتُ القلم

من يدها بحركة مباغتة. استغربت سلوكي للوهلة الأولى، ثمّ ابتسمت. وعندما رأتني أتطلَّع إلى صدرها حيث الجرح، فهمت. وبسرعة، رفعت يدها وسحبت طرف البلوزة لتغطِّي صدرها.

ـ ما هذا؟

سألتها. لم تجبني. أعدت السُّؤال بصوت مرتفع:

ـ ما هذا؟.. تكلَّمي.. ما هذا؟

انتبهتُ فجأة إلى أنِّي فقدت هدوئي وأنِّي أخاطبها كمن يخاطب زوجته. ابتعدت عنها. خطوت بضع خطوات في الصالون.

ثمَّ عدت إليها.

ـ عن أيِّ شيء تتحدَّث؟

سألتني وكلّ ما في نظراتها يوحي بأنَّها تعرف عمَّا أتحدَّث.

ـ هذا الجرح..

خيَّم الصمت. وبدون أيِّ تردُّد، قلت لها:

ـ أعرف من فعل هذا..

رفعت رأسها قليلًا وهي تنظر إليَّ ثمَّ خفضته. كأنَّها أرادت أن تقول لي شيئًا ما. ثمّ عدلت عن ذلك.

ـ أعرف أيضًا متى حدث هذا..

ومن جديدٍ، خيَّم الصمت. تساءلتُ عمَّا إن كان من الأفضل لها وهي على مثل هذه الحال أن أتوقَّف عند هذا الحدّ. تذكَّرت أنَّه لا يحقّ لي أن أطرح عليها أسئلة دقيقة عن أمر يخصّها. صحيح أنِّي أفعل هذا لمصلحتها؛ فالدافع الحقيقيّ لطرح هذه الأسئلة هو حمايتها ومساعدتها، أو على الأقلّ، محاولة التَّخفيف عنها. لا بدّ أن تشعر أنَّها ليست وحيدة في محنتها، وأنَّ هناك من يقف إلى جانبها ويمكنها أن تعوّل عليه في الفترات العسيرة. لكنَّها لم تطلب منِّي أيّ مساعدة. وربَّما لا تحتاج إليها

أصلًا. بل لعلَّ تصرُّفي هذا يضايقها ويذكِّرها بأمر تريد أن تنساه أو نسيته بعد. بَيْد أنَّها لا تجرؤ على أن تقول لي هذا احترامًا لي. وبالرَّغم من إدراكي لكلّ هذا، لم أفلح في قمع رغبتي في الكلام.

ـ مدام ألبير أخبرتني بذلك..

ـ مدام ألبير؟!

تساءلَت بتعجُّب.

ـ نعم.. مدام ألبير..

بعد لحظة، أضفتُ:

ـ كانت خائفة عليك.. طرقَت بابي.. لأوَّل مرَّة تفعل هذا.. وطلبَت منِّي أن أتدخَّل..

عندئذ أخذت تبكي. تفاقم توتُّري. منذ فترة طويلة لم أر امرأة في عمرها تبكي. بريجيت ليست من النساء اللَّواتي يبكيْنَ بسهولة، حتّى أنِّي لا أذكر آخر مرَّة فعلت ذلك. ماذا يجب أن أفعل الآن لأواسيها؟ هل أحتضنها؟ هل أمسك بيدها؟ ولكن، هل أنا في حال تسمح لي بأن أفعل هذا من دون أن أنزلق إلى شيء آخر، فأرتكبَ خطأً. تركتها وعدت إلى المطبخ. الشيء الوحيد الذي خطر ببالي آنذاك هو أن أبتعد عنها وأتركها وحيدة. ينبغي ألَّا تشعر أنَّها تحوَّلت أمامي إلى مشهد مأساويّ مثير للشفقة وللفرجة.

حين رجعت بعد بضع دقائق، رفعت رأسها صوبي. لكنَّها بالكاد نظرت إليَّ. حالها لم تتحسَّن بل إنَّها ساءت. التقطتُ علبة المناديل الورقيَّة التي كانت على الطاولة الواطئة وقدَّمتها لها. أخرجَت بضعة مناديل دفعة واحدة وراحت تمسح دموعها ومخاطها. تذكَّرت أنِّي نسيت أن آتيها بكوب ماء معدنيّ، وهو ما قرَّرت القيام به عندما كنت في المطبخ. فعلت ذلك بسرعة. حالما وضعته على الطاولة أمامها، أمسكت به من دون أن تتوقَّف عن البكاء وأفرغته في جوفها كأنَّها لم تشرب ماء منذ وقت طويل.

ـ تريدين عصير برتقال؟

ـ لا..

ـ تريدين شيئًا آخر..

حرَّكت رأسها بالنفي. وفي اللَّحظة التي شعرت فيها أنَّ الأمور بدأت تنفرج، اشتدّ بكاؤها وراحت تنشج. فجأة، اندفعت واقفة وهي تخفي وجهها بين يديْها الاثنتَيْن. كنت أتصوَّر أنَّها ستجمع أدوات التَّنظيف وستغادر الشقَّة فورًا. لكنِّي فوجئت بها تهرع إلى غرفة سامي وتغلق الباب على نفسها.

لم أدر ماذا يتوجَّب عليّ أن أفعل، فتهالكتُ على الكنبة وقد انتابتني الكآبة. لقد فتحت على نفسك بابًا يا سي عاشور هذا الصباح. الآن يجب أن تغلقه. تذكَّرت المثل التونسيّ. لا تدخل يدك لحفر ولا تلسعك عقارب. أمِّي كانت تردِّده كثيرًا. فهو من الأمثال التي كانت تحبُّها. من المؤكَّد أنَّ زهرة تعرفه. كلّ هذا ما كان ليحدث لو لم تلحّ في السُّؤال لمعرفة ما حدث قبل بضعة أيَّام في شقَّة الطابق الخامس.

لم يكن باستطاعتي أن التحق بها في غرفة سامي. لم يحدث أبدًا منذ أن بدأت الخدمة في بيتنا أن وجدنا نفسيْنا معًا في غرفة النوم أو غرفة سامي. المكانان الوحيدان اللذان نلتقي فيهما هما الصالون والمطبخ. كنت، حين تريد أن تعمل في غرفة أكون فيها، أخرج. وكانت، عندما أريد أن أدخل غرفة تكون فيها، تخرج. كلانا يعرف أنَّ الغرفة ليست مكانًا محايدًا، وأنَّها مكان للنوم والاستلقاء والاسترخاء، وفيها، يلتقي الذكر بالأنثى في لحظات حميميَّتهما القصوى.

فكَّرت أن أخرج من الشقَّة وأتمشَّى حول العمارة لبضع دقائق، لعلّ تركها لوحدها في البيت يُعيد لها شيئًا من التَّماسك. إلَّا أنَّني لم أفعل. ارتأيت أنَّ من الأفضل أن أبقى بالقرب منها، فقد تحتاج إليَّ في لحظة ما. فتحت التلفزيون. كانت هناك مباراة تنس للسيِّدات في إحدى القنوات. وإحدى المتباريتَيْن لاعبة كنتُ معجبًا بها. ليس بطريقتها في اللَّعب ـ فأنا لست مولعًا بهذه الرياضة ـ وإنَّما بجسدها المثير. ولم أكن أخفي ذلك على بريجيت، بل إنَّني كنت أبدي أمامها إعجابي باللَّاعبة كلَّما ظهرت على شاشة التلفزيون. لا تنزعج ولا تغار، فهي أيضًا تفعل ذلك بين الحين والآخر. والرياضيُّون الذين تعجب بأجسادهم هم لاعبو الركبي.

جلستُ على الكنبة، واستغرقت في مشاهدة المباراة. لم أنتبه إلى مرور الوقت إلَّا عندما عادت زهرة إلى الصالون. كانت قد كفَّت عن البكاء. جفَّفت دموعها، ومخَّطت أنفها، وسوَّت

شعرها. تقدَّمت بضع خطوات متردِّدة، ثمّ وقفت في منتصف الصالون جاهزة في انتظار أن أوجِّه لها أمرًا ما. كانت ترتسمُ على شفتَيْها النديَّتَيْن شبه ابتسامة. وكانت تنظر إليَّ نظرات قصيرة خجولة، كأنَّها تعتذر عمَّا بدر منها.

وبالرَّغم من انتفاخ جفنَيْها واحمرار عينَيْها، بدت لي أجمل من قبل. أحسست أيضًا أنَّ البكاء زاد من أنوثتها. لم أرها منذ أن عرفتُها هشَّة ورقيقة إلى هذا الحدّ. ولم يزد هذا في عطفي عليها فحسب، وإنَّما في تعلُّقي بها أيضًا. لو لم ألتزم بأن يظلّ حبِّي لها عذريًّا، لربَّما سعيت إلى أن أنال منها شيئًا وهي في مثل تلك الحال من الهشاشة اللَّذيذة. حسدتُ منصور. يبدو أنَّه لا يدرك حقًّا قيمة هذه المرأة.

ـ أنت في حال أفضل الآن؟

سألتها، وأنا أحاول أن أتجنَّب النَّظر إليها كي لا أزيد في حرجها واضطرابها. وفورًا، حرَّكت رأسها بالإيجاب. ثمّ قالت بصوت واطئ:

ـ سامحني.. سي عاشور.. لا أدري ما أصابني..

ـ لا تعتذري..

ـ ضيَّعت وقتك..

ـ لا يهمّ..

لم أشأ أن أتركها تغادر البيت آنذاك. صحيح أنَّ حالتها تحسَّنت. ولكن آثار البكاء لا تزال واضحة على وجهها. خشيت أن ينتبه منصور إلى ذلك حين تعود إلى شقَّتها. ثمّ إنَّنا لم نكمِّل كلّ ما عزمت القيام به في درس ذلك اليوم. أغلقت التلفزيون. وقلت لها:

ـ اجلسي.. سنواصل الدرس.

غمرني الابتهاج عندما أطاعتني. بدا لي آنذاك أنَّها هي أيضًا كانت ترغب في ذلك. جلست مقابلها. وشرعنا في العمل. بَيْد أنَّها ألقت بقلمها جانبًا بعد لحظات، وسألتني:

ـ هل يمكن أن نتوقَّف؟

ـ لماذا؟

ـ لم أعد قادرة على التركيز..

حرَّكتُ رأسي موافقًا. لا يجوز أن أرغمها على البقاء. ولا جدوى من مواصلة الدرس إن كانت غير راغبة في ذلك أو غير قادرة على التَّركيز. وفيما كانت تجمع أدواتها، سألتها:

ـ هل ستعودين إلى بيتك؟

ـ لا.. لديَّ شغل في بيت مدام ألبير.

– 12 –

توقَّفت زهرة عن العمل في بيتنا لثلاثة أسابيع. لم أحاول أن أعرف لماذا. طلبتْ منِّي السَّماح لها بهذا، فوافقتُ. الحقيقة أنِّي رحَّبت بذلك في قرارة نفسي. كنت في حاجة إلى أن نبتعد عن بعضنا لكي أرى المشهد بوضوح إذْ اختلطت الأمور في ذهني. لم أعد واثقًا من نفسي ومن طبيعة علاقتي بزهرة بعد الغضب الذي انتابني إثر اكتشافي للجرح على صدرها، وبعد تأثُّري الشديد ببكائها في بيتي. وقد زاد نقاشي الساخن مع بريجيت حول علاقتي بزهرة ومنصور من إرباكي وتعقيد المسألة.

ولم أخبر بريجيت بتوقُّف زهرة عن العمل. وكي لا تنتبه إلى ذلك، قرَّرت أن أقوم بتنظيف البيت صباح كلّ يوم ثلاثاء.

لم أجد أيّ صعوبة في ذلك، فقد كنت أقوم بهذه المهمَّة قبل تشغيل زهرة. الطريف أنَّ بريجيت وجدت البيت في تلك الفترة أَنْظف من العادة، وعبَّرت عن فرحها لعثورنا على خادمة تُتقن عملها فضلًا عن أنَّها مهذَّبة وجارة لنا.

لمّا عادت زهرة إلى الشغل، تبيَّن أنَّ ذلك الانقطاع كان مُجديًا لي ولها. كانت قد استعادت شيئًا من حيويَّتها المعهودة. وكانت أكثر تماسكًا. خيِّل إليّ أنَّها سمنت قليلًا، ممَّا جعلها تبدو أصغر سنًّا، لكن أقلّ جاذبيَّة. لم تحدِّثني عمَّا حدث لها فيما بعد مع منصور. لكن شعرت من خلال تصرُّفاتها، ومن الحال النفسيَّة التي بدت عليها، أنَّها نسيت شجارها معه وأنَّ الأمور بينهما عادت إلى طبيعتها. أنا أيضًا أصبحت أكثر تماسكًا. واسترجعت ثقتي بنفسي إلى حدٍّ بعيد.

بعد انتهاء الدرس، لم تغادر الشقَّة، وإنَّما توجَّهت إلى المكتبة. تطلَّعت طويلًا إلى الكتب. ثمّ سألتني وهي تلامس بعضها برفق:

ـ هل يمكن أن أستعير منك كتابًا؟

فوجئت بطلبها. ومع ذلك، حركَّت رأسي بالإيجاب.

ـ وماذا ستفعلين به؟

ـ سأقرأه..

قالت بنبرة واثقة. لقد تقدَّمَت كثيرًا في قراءة العربيَّة، لكن مستواها لم يرتق إلى ما يمكِّنها من أن تقرأ كتبًا. كلّ ما تقدر عليه، هو قراءة نصوص قصيرة وبسيطة جدًّا، كتلك التي نجدها في كتب القراءة المخصَّصة للمبتدئين. قلت لها مبتسمًا وبنبرة هادئة لكيلا أجرحها:

ـ لستِ قادرة على قراءة أيّ من هذه الكتب التي ترينها في المكتبة..

ـ سأحاول.. سيساعدني ابني كريم..

كنت على يقين من أنَّ كريم غير قادر على مساعدتها، فكلّ ما يعرفه من العربيَّة، كما أخبرتني ذات يوم، هو ما تعلَّمه في الجامع عندما كان صغيرًا.

ـ أيّ كتاب تريدين؟

ـ «عرس الزين»..

خطر ببالي آنذاك أن أعرض عليها قصصًا للأطفال أشتريها لها، أو أختارها لها من بين تلك التي قرأها ابني سامي. وحين أخبرتها بذلك، قالت:

ـ لكنّني لست طفلة.. أريد أن أقرأ كتبًا للكبار..

ـ ولماذا «عرس الزين»؟

ـ شكله أعجبني..

نهضت وتناولت الكتاب من الرفّ لأتأمَّل الرَّسم. مدَّت عنقها من دون أن تقترب منِّي. لأوَّل مرَّة، أهتمّ برسم الغلاف إلى هذا الحدّ. لا أحبّ كثيرًا الصُّور أو الرسوم التي توجد على أغلفة الكتب

العربيَّة التي لديَّ. الكتب الفرنسيَّة تبدو لي دائمًا أجمل. لكن هذه المرَّة، بدا لي الرَّسم على «عرس الزين» موحيًا ومثيرًا للخيال. الألوان أيضًا أعجبتني. انتبهتُ إلى أنَّ هناك توقيعًا في أسفل الرَّسم. لا شكَّ بأنَّه اسم الرسَّام. تفحَّصته للحظة. إلَّا أنَّني لم أتمكَّن من قراءته، فهو مكتوب بحروف صغيرة جدًّا. قلت وأنا أعيد الكتاب إلى مكانه:

ـ طيِّب.. سأعيره لك.. لكن ليس الآن..

ـ أريد أن أعرف ما هي قصَّة الزين هذا.. وكيف كان عرسه..

قالت بحماس قبل أن تسألني:

ـ هل قرأتها؟

ـ نعم..

ـ إذن تعرف الحكاية بكلّ تفاصيلها؟

هززت رأسي بالإيجاب. في الحقيقة، لم أكن أعرف. كنتُ قد قرأتُ الرواية منذ فترة طويلة. وكلّ ما أذكره منها أنَّ هناك شابًّا أحبَّ فتاة وتزوَّجها. أعتقد أنِّي استمتعت بقراءتها. لكن ليس كثيرًا؛ فلو حدث هذا لظلَّت كلّ أحداثها عالقة في ذهني إلى حدّ الآن. لكنِّي أذكر أنِّي أكملت قراءتها وأعجبت بأسلوب الكاتب. هناك كتب أتوقَّف عن قراءتها بعد بضع صفحات لأنِّي أجدها مملَّة. ظلّ بصرها مركَّزًا على وجهي، فقلت:

ـ إنَّها حكاية شابّ اسمه الزين، عشق بنتًا وأقام عرسًا عندما تزوَّجها..

ـ لا تحكِ لي الحكاية.. أريد أن أكتشفها بنفسي عندما أقرأ الكتاب.. لكن الآن، أريد أن أعرف شيئًا واحدًا فقط.. ماذا الذي جعل الزين يحبّ هذه البنت؟

ـ أمور كثيرة..

قدَّمت لها هذه الإجابة الغامضة والفضفاضة آملًا أن تسكت. لكنَّها واصلت:

ـ مثلًا..

قلت بتبرُّم وبنبرة أستاذ يخاطب تلميذه:

ـ قلت لك.. أمور كثيرة..

هزّت رأسها وصمتت. وعندما عدت إلى مكاني، انتبهت إلى أنَّ تصرُّفي معها لم يكن ودِّيًّا وأنَّه لا مبرّر له، فقلت لها مطمئنًا:

ـ أجيبك في مرَّة أخرى..

وحين أخذت تستعدّ للمغادرة، شعرتُ بانقباض. لم يكن لديَّ ما أفعله في ذلك الصباح. ولا رغبة لي في الخروج ولا في مشاهدة التلفزيون، فقد كنت في فترة سئمت فيها أخبار العالم العربيّ التي هي في أغلبها حروب ونزاعات ومشاكل اجتماعيَّة عويصة. سيترك ذهاب زهرة في البيت فراغًا لن أقوى على تحمُّله. تبيَّن لي أيضًا آنذاك أنَّ الإحساس بالفقدان والوحشة الذي تراكم في نفسي خلال الأسابيع الثلاثة التي لم نلتق خلالها في البيت، كان أعمق ممَّا كنت أتصوَّر. تملَّكتني رغبة قويَّة في أن أطلب منها عدم المغادرة والبقاء معي للحظات. لكن كيف أبرّر لها هذا الطلب الذي سيفاجئها حتمًا، إذ لم يسبق أن التمستُ منها هذا أبدًا من قبل. وقد يدفعها إلى التَّفكير في أنّي أريد أن أحاول معها شيئًا ما. ثمّ إنَّ لديها بالتأكيد التزامات أخرى في بيتها أو في بيت مدام ألبير، وربَّما ينتظرها زوجها في البيت لأمر ما. إنَّه على علم بأنَّها موجودة آنذاك في بيتي وأنَّ وقت مغادرتها قد حان. وفي التماعة، بدا لي أنَّ أفضل شيء يجعلها تبقى معي هو حكاية حبّ الزين. قلت لها باندفاع لأثير اهتمامها:

ـ الزين أحبّ الفتاة كثيرًا.. بعد سبعة أيَّام، سأقول لك لماذا؟..

أشعَّ وجهها بابتسامة واسعة. منذ شجارها مع منصور، لم تبتسم أمامي ابتسامة بهذا الحجم. وضعت أدواتها على الطاولة، ثمَّ سحبت كرسيًّا وجلست عليه مقابلي. شكرًا سيِّدي الطيِّب صالح، قلتُ في نفسي، لقد أسدَيْت لي خدمة من دون أن تشعر.

لم أكن أتوقَّع بتاتًا أن تجلس. تساءلت عمَّا إذا كانت هي أيضًا تودّ البقاء معي في البيت. ربَّما هي أيضًا اشتاقت إليَّ وإلى ممارسة لعبة الغواية معي التي لم نمارسها منذ فترة بسبب ما حدث لها مع زوجها.

ـ ومتى تنوين قراءته؟

كنت أدرك أنَّ السُّؤال غير مهمّ. لكن كان لا بدَّ أن أقول شيئًا ما كي أبقيها إلى جانبي أطول وقت ممكن.

ـ عندما يسافر منصور وكريم إلى تونس.. سيصير عندي وقت كثير..

منصور يسافر إلى تونس! هذا خبر لم أكن أنتظره منها، خاصَّة في تلك اللَّحظات. لا أدري إن كانت قد روته لي بالصدفة أم فعلت ذلك عن قصد. على أيِّ حال، لم تكن مطالبة بأن تُخبرني بأمر كهذا يتعلَّق بعائلتها، وخاصَّة بمنصور الذي لا شكّ أنَّها استنتجت منذ زمنٍ أنِّي لا أرتاح له، وإن كنت أحترمه بالطبع كجارٍ لي وكتونسيٍّ أيضًا، وقبل كلِّ شيء، كزَوْج لها.

من المؤكَّد أنَّها أدركت أنَّ صمتي ليس صمتًا طبيعيًّا، فأضافت موضِّحة:

ـ سيسافران إلى تونس قريبًا.. سنبدأ في بناء طابق في بيتنا هناك.. طابق يسكنه كريم عندما نعود إلى تونس.. ولا بدَّ أن يُشرفا على بدء الأشغال..

مدَّدت عنقي صوبها مُبديًا اهتمامًا بالأمر.

ـ وسيبقيان هناك ثلاثة أشهر.. وربَّما أكثر.. تمنَّيت أن أسافر معهما.. اشتقتُ إلى تونس.. لكنّ هذا غير ممكن.. لديَّ شغل كثير هذه الفترة.. ومدام ألبير مريضة.. ولا يجوز أن أتركها وحدها..

حسنًا، قلتُ في نفسي، يبدو أنَّ أمورًا كثيرة حدثت خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة. سألتني بعد لحظة، وقد تغيَّرت نبرة صوتها:

ـ هل لك بيت في تونس؟

ـ لا..

ـ لا؟!.. أستاذ كبير.. ولا بيت لك في تونس؟!

تابعت وهي تخطو صوب الباب للمغادرة:

ـ لا بدَّ أن يكون لك بيت في بلدك.. لا يجوز ألّا يكون لك بيت في تونس.. كلّ ما تملكه خارج بلدك لا يساوي شيئًا أمام ما تملكه في بلدك..

بالطبع، كانت لديَّ رغبة في أن يكون لي بيت في تونس. كنت قد فكَّرت في هذا الموضوع طويلًا وتناقشت فيه مع بريجيت وابني. بعد أعوام قليلة، سأحال إلى التقاعد. بريجيت أيضًا. كنتُ أنوي قضاء بضعة أشهر من السنة، خاصَّة في الشتاء، في تونس. في البداية، كنت متحمِّسًا كثيرًا لشراء بيت صغير في إحدى المدن على الساحل. لدينا ما يكفي من المال لذلك. لكن فيما بعد، تخلَّيت مؤقتًا عن فكرة الشراء. أقنعتني بريجيت بأنّ من الأفضل أن نستأجر في البداية.

حالما غادرت زهرة الشقَّة، قرَّرت أن أقرأ الرواية من جديد في أسرع وقت. لن يستغرق ذلك وقتًا طويلًا، فهي قصيرة. لا بدَّ أن أقرأها بتمعُّن لكي أجيب عن سؤالها بدقَّة. ستُصاب بخيبة أمل كبيرة لو تردَّدت في ذلك. لم أكن أتوقَّع أن أقرأ من جديد، تحت ضغط خادمة وقارئة مبتدئة، رواية كنتُ قد قرأتها سابقًا. تساءلتُ عمَّا إذا كان حبّ الزين يرمز إلى شيء ما، وعمَّا إذا كنتُ سأدرك مغزى الرواية؛ إذ لا أعتقد أنَّ الطيّب صالح كتب رواية كاملة ليقصّ علينا حكاية لمجرَّد التسلية.

عجيب!.. كلّ هذا لم يخطر ببالي أبدًا من قبل. هناك أناس بسطاء يدفعونك، بتلقائيَّتهم وذكائهم الفطريّ، إلى طرح أسئلة لم يسبق أن طرحتها على نفسك، أنت المتعلِّم المثقَّف!

– 13 –

أمضيتُ السهرة وحيدًا كالعادة في غرفة سامي. منذ فترة، لم نعد نقضي السهرة معًا في الصالون. لم نَعُد نتَّفق على البرامج التي سنشاهدها. بريجيت تحبّ المسلسلات والمنوَّعات والألعاب في القنوات الفرنسيَّة، وأنا أفضِّل نشرات الأخبار والأفلام الوثائقيَّة والكليبات في التلفزيون التونسيّ والقنوات العربيَّة. لذلك، اشترينا جهاز تلفزيون ثانيًا وضعناه في غرفة سامي. هكذا، صار بإمكان كلّ منَّا أن يشاهد ما يريد من دون أن يزعج الآخر. سئمتُ من مشاهدة التلفزيون، فأطفأتُه. وبالرَّغم من أنَّ الوقت كان مبكِّرًا، قرَّرت أن أذهب إلى غرفة النوم.

وأنا أعبر الصالون، تطلَّعت إلى بريجيت. كانت مضطجعة على الكنبة مسندةً أعلى ظهرها إلى وسادة ورافعة ساقَيْها المضمومتَيْن قليلًا. منذ أن تدهورت صحَّتها، وتحديدًا منذ أن بدأت تشعر بوجع في عمودها الفقريّ، صارت تقضي معظم السَّهرة في هذه الوضعيَّة. استدارت إليَّ، فابتسمتُ لها. لم تردّ على ابتسامتي، ولم تنبس بكلمة. اكتفت بتحريك رأسها. ثمّ عادت تحدِّق في شاشة التلفزيون. منذ أن تناولنا طعام العشاء، لم يُكلِّم أحدنا الآخر. أحيانًا، نبقى ساعات كاملة من دون أن نقول شيئًا. وهذا لا يضايقنا أو يدفعنا إلى أيّ تساؤل حول علاقتنا. لقد مضت عدَّة أعوام على زواجنا. والكثير ممَّا كان لدينا لقوله قد قلناه.

حالما تمدَّدت على الفراش، تذكَّرت أنَّ عليَّ أن أقرأ «عرس الزين». كان لديَّ وقت كافٍ للقراءة. والظرف مناسب، لكنِّي أرجأت ذلك إلى اللَّيالي القادمة. وعلى أيِّ حال، ليس هناك ما يدعو إلى العجلة. ومن الأفضل أن أقرأها على مهل وبإمعان كي أكون قادرًا على الإجابة عن كلِّ ما يمكن أن تطرحه عليَّ زهرة من أسئلة. لا يجوز أن أتردَّد كما حدث في المرَّة التي سألتني فيها عن الأشياء التي جعلت الزين يحبّ الفتاة.

شعرت بقليل من البرد يتسلَّل إلى قدميّ بالرَّغم من أنَّ المدفأة كانت شغَّالة. لا بدَّ أنَّ البرد قد اشتدَّ في الخارج. ضممت قدميّ ولففتهما باللِّحاف بإحكام، ثمَّ غطيَّت رأسي بالكامل وبسطت ذراعيّ حول جذعي. وحين أغمضت عينيّ، انتبهت إلى أنَّني في وضعيَّة تشبه تمامًا وضعيَّة الميِّت بعد غسله وتكفينه، ففتحت عينيّ وأزحت اللِّحاف عن رأسي وباعدت ما بين قدميّ.

استحوذت على ذهني فكرة الموت. حاولت أن أطردها. بيد أنَّني لم أفلح. منذ أن تجاوزت الأربعين، لم أعد أفكِّر كثيرًا في الموت. شعرتُ وأنا أبلغ هذه السنّ أنَّني سأعيش طويلًا. قبل ذلك، كانت تلازمني فكرة أنِّي سأموت مبكِّرًا. لم أكن أشكو من أيِّ مرض. وكنت أعتني بصحَّتي، بل وأمارس أحيانًا رياضة الرَّكض. ومع ذلك، كنت أخشى أن أموت. وما كان يخيفني ليس الموت فحسب، وإنَّما أيضًا أن أرحل عن هذه الدُّنيا من دون أن أتمتَّع بمباهجها الكثيرة، ومن دون أن أحقِّق ما كنتُ أحلم بتحقيقه، وهو أن أواصل دراستي وأن أصبح أستاذًا في الجامعة. وأن أبني بيتًا، وأن أتزوَّج، وأن أنجب، وأن أرى ابني وهو يكبر.

وفي الأعوام القليلة الماضية، وتحديدًا منذ بلوغي الستِّين، أخذت أفكِّر من جديد بين الحين والآخر في الموت. لكن، لم أعد أخشاه كما كنتُ أخشاه حين كنتُ شابًّا، وإن كنتُ أتمنَّى بالطبع أن يؤجِّل عزرائيل زيارته لي إلى أبعد وقت ممكن. وهذا التَّفكير يجرّني إلى موضوع آخر بدأ يشغل بالي، وهو جنازتي. لقد قرَّرت أن أدفن في تونس، في أقرب مكان من قبري أمِّي وأبي. أخبرت بريجيت وابني سامي بذلك.

وبالرَّغم من أنَّ بريجيت عبَّرت عن رغبتها في أن أُدفن في الجزء المخصَّص للمسلمين في إحدى مقابر باريس كي تتمكَّن من زيارتي ووضع زهور على قبري بين الحين والآخر، وكي أكون حتّى وأنا ميِّت قريبًا منهما، فإنَّهما لم يبديا اعتراضًا ووعداني وعدًا قاطعًا بتنفيذ قراري.

المشكلة هي نقل الجثمان إلى تونس في ظروف ملائمة، وفي أسرع وقت ممكن، كيلا يقع تأخير في عمليَّة الدَّفن. الإجراءات معقَّدة جدًّا، وهما غير متعوِّديْن على القيام بأمور كهذه. لذا، رحت أتساءل عمَّا إذا كان من الأفضل أن أعهد بهذه المهمَّة إلى إحدى شركات نقل الموتى المسلمين إلى بلدانهم الأصليَّة، والتي بدأت تتكاثر في الأعوام الأخيرة في فرنسا.

نظرت إلى المنبّه. بعد قرابة ساعة، ستلتحق بي بريجيت. من المؤكَّد أنَّها ستلتصق بي، وسأحتضنها لتحصل على قليل من الدِّفء. تساءلت عمَّا إذا كان مجديًا لي ولها أن نمارس الحبّ هذه اللَّيلة. لم نفعل هذا منذ فترة. حاولت أن أتذكَّر متى كانت المرَّة الأخيرة. لم أستطع. أذكر أنَّ الأمور لم تتمّ مثلما كنت أتمنَّى. بريجيت لم تكن متحمِّسة لذلك، فلم تبذل أيّ مجهود، وأنا كنت متعبًا.

في الحقيقة، لم تكن لديَّ آنذاك رغبة قويَّة في ممارسة الحبّ. ومع ذلك، قرَّرت أن نفعل ذلك. والدافع لاتِّخاذ هذا القرار اعتقادي أنَّه لا بدَّ أن نمارس الحبّ بين الحين والآخر. كنت أخشى أن تموت الرَّغبة فينا تمامًا إن انقطعنا عن ذلك لفترة طويلة. ولا بدَّ أن أعترف أنَّ بريجيت تطيعني في هذا المجال. نادرًا ما ترفض الاستجابة لرغبتي. لم أكن أتصوَّر في البداية أنَّ امرأة مثلها ستكون طيِّعة إلى هذا الحدّ في هذه المسألة الحسَّاسة.

ومنذ ذلك الوقت، صرت أفصل بين سلوك المرأة الخارجيّ وأفكارها ومواقفها من القضايا الكبرى، وبين تصرُّفاتها في عالم الجنس والرَّغبة. ويبدو أنَّ هناك نساء قويَّات في حياتهنَّ اليوميَّة ويحرصنَ حرصًا شديدًا على أن يتصرَّفنَ بحرِّيَّة واستقلاليَّة مع الرجال، لكنَّهنَّ يصبحنَ ضعيفات في الفراش. إلَّا أنَّ استجابة بريجيت لي ليست ضعفًا أمام الجنس، وإن كانت تحبّ ذلك مثل أغلب النساء، وإنَّما هي تعبير عن حبِّها لي كما يخيَّل إليَّ.

في فترة ما، كنت أتساءل أيّ نوع من النساء زهرة؟ كنت أعرف أنَّه من الصَّعب جدًّا الإجابة عن سؤال من هذا النوع. لكن في بعض الأحيان، يخيَّل إلى أنَّها من النساء اللَّواتي يصبحنَ ضعيفات أمام الجنس. لا أدري لماذا. ربَّما يعود هذا إلى طبيعة علاقتها مع منصور التي تبدو لي من الخارج ملتبسة ومحيِّرة إلى حدٍّ ما. هناك اختلاف كبير بينهما في عدَّة أمور. وهي في رأيي أفضل منه في كلِّ المجالات تقريبًا. ومع ذلك، فهي لا تزال متمسِّكة به كزوج، أو هذا ما يبدو لي على الأقلّ.

وفي الحقيقة، ما يحيِّرني في هذه العلاقة ليس تمسُّكها به. كلّ امرأة تحتاج إلى زوج يلبِّي حاجتها العاطفيَّة ويساعدها ويقاسمها أعباء الحياة. ثمّ إنَّ المرأة العربيَّة لا تستطيع أن تعيش وحيدة وتُقيم بمفردها، خاصَّة في بلد أجنبيّ، حتّى وإن كانت قويَّة الشَّخصيَّة ولها إمكانيَّات مادِّيَّة. لو أقدمت على ذلك، لحامت شكوك كثيرة حول سلوكها، ولنُسِجت عنها قصص تشوِّه سمعتها وتنال من شرف عائلتها.. ما يحيِّرني هو أنَّها تستشيره، وخصوصًا تحميه بشكل ما. وهذا ما ازددت تأكُّدًا منه بعد شجارهما.

تذكَّرت ما قالته لي قبل أيَّام قليلة عن سفر منصور وابنها كريم إلى تونس. استعدت كلماتها التي بقيت عالقة في ذاكرتي عدَّة مرَّات، فتبيَّن لي عندئذ أنَّها روت لي الخبر عن قصد. من المستبعد أن تروي امرأة ذكيَّة مثلها خبرًا كهذا بالصدفة. ولكن، لماذا فعلت ذلك؟ هل أرادت أن تُخبرني بأنَّها ستستريح من منصور ومن شجاراته لبضعة أشهر؟ إن كان هذا ما قصدته، فمن المحتمل إذن أنَّها لم تَعُد تتحمَّله ولم تَعُد تقوى على العيش معه. وربَّما أرادت أن تلمِّح ولو من بعيد إلى أنَّها لا تحبّه.

ولكن، ماذا لو كانت تريد أن تدفعني إلى التَّفكير في مسائل أخرى بغية استئناف لعبة الإغواء وحتّى إذكاء نار الرَّغبة لديَّ؟ إنَّ وجود امرأة تحبُّها، وحيدة في شقَّة، على بعد بضع خطوات من شقَّتك، يشجِّع على تخيُّل أمور كثيرة رائعة. كنت مُستعدًّا بالطبع لمواصلة لعبتنا اللَّذيذة، بل وكنتُ جاهزًا للذهاب في ذلك إلى أبعد ممَّا ذهبت إليه حتّى ذلك الوقت. بيد أنَّني كنت على يقينٍ من أنَّني لن أقوم بما يمكن أن يُسيء إلى بريجيت. لن أخونها أبدًا، ردَّدتُ ذلك في نفسي، كأنِّي أحذِّرها من ارتكاب هذه الخطيئة.

حين التحقت بي بريجيت، فوجئت بأنَّها تريدني. لقد لاحظت أنَّها دلفت إلى غرفة النوم في وقت أبكر من العادة، وأنَّها أمضت عدَّة دقائق في غرفة الاستحمام قبل أن تلتحق بي، والأهمّ من ذلك، أنَّها كانت ترتدي ثيابًا داخليَّة تعرف أنَّها تثيرني. إلَّا أنَّني لم أدرك أنَّها ترغب في ممارسة الحبّ إلَّا عندما ضممتها إليَّ كي أنقل إليها شيئًا من الدِّفء؛ إذ قرَّبت وجهها من وجهي عارضة عليَّ شفتَيْها المفتوحتَيْن.

المفاجأة الثانية في تلك اللَّيلة كانت أعظم، وهي أنَّنا مارسنا الحبّ كما كنَّا نمارسه في الأعوام الأولى من علاقتنا. لم تشتك بريجيت من أيّ وجع في الظهر أثناء الممارسة، بل لم تطلب منِّي أن أباشرها برقَّة وهو ما صارت تؤكِّد عليه منذ أن تدهورت صحَّتها. رغبتها الشديدة أنستها على ما يبدو كلّ أوجاعها. لا أدري ما الذي حدث داخل جسديْنا. للأجساد منطقها الخاصّ، فقد انتابتهما حمّى الشهوة حالما تلامسا.

هل لهذا علاقة ما بالأفكار السَّوداء التي غزتني قبل حين؟ هل التَّفكير في الموت هو الذي أجَّج رغبتي؟ ومن يدري؟ لعلَّ بريجيت فكَّرت هي أيضًا في الموت عندما كانت مضطجعة على الكنبة في الصالون. ربَّما دفعها إلى ذلك تفاقمٌ مفاجئ للوجع في عمودها الفقريّ، أو مشهد من المسلسل الذي كانت تشاهده. كلّ شيء وارد. لا أحد يعرف كيف ومتى تتسلَّل إلينا هذه الأفكار.

لم يسبق أن سمعتُ بريجيت تتحدَّث عن الموت. كأنَّ أمره لا يهمُّها بتاتًا. ما يهمُّها هو الحياة وأن تعيشها بامتلاء، وأن تستمتع قدر المستطاع بكلِّ ما فيها. وحين يُذكر أمامها الموت، أو تسمع أنَّ أحدًا ممَّن تعرفهم توفِّي، فإنّها لا تتأثَّر كثيرًا. إنَّها حكيمة وأكثر قدرة منِّي على تقبُّل مثل هذه الأشياء. أعتقد أنَّها أكثر إيمانًا منِّي بالقضاء والقدر في العمق، بالرَّغم من أنَّها ليست مُتديِّنة.

بعد الانتهاء من الممارسة، ظلّ جسدانا المنهكان متشابكيْن. كنَّا فخوريْن بما أنجزناه؛ مثل مراهقيْن يمارسان الجنس للمرَّة الأولى. لم نتفوَّه بكلمة ولم نقم بأيّ حركة، كما لو أنَّ اللذَّة التي اخترقت جسديْنا قد خدَّرتنا وأفقدتنا كلّ قدرة على الكلام. أو كما لو كنَّا نخشى إنْ تكلَّمنا أن نفسد تلك اللَّحظات النادرة من السَّعادة. وفي اللَّحظة التي انفصلنا فيها، سألتني وهي تدير لي ظهرها:

ـ ما أخبار صديقك منصور؟

أصابني الذهول. صديقي! وعلى الفور، تذكَّرت ما قالته لي مدام ألبير من أنَّ منصور هو تونسيّ مثلي حين طلبت منِّي التدخُّل في شجار زهرة وزوجها. كان واضحًا أنَّ بريجيت تمزح. لكن لأوَّل مرَّة، تسأل عن أخبار منصور من دون أن يكون هناك أيّ داع لذلك. والأغرب من كلّ هذا، أنّها لأوَّل مرَّة تتحدَّث عنه بهذه الطريقة وتقدِّمه على أنَّه صديق لي، ولو أنَّ هذه الكلمة لا تعني في سؤالها المعنى الشائع. أضافت:

ـ من فترة لم أشاهده..

قرَّرتُ في البداية ألَّا أخبرها بما قالته لي زهرة عن سفره القريب. بَيْد أنَّني تراجعت عن قراري بعد برهة. شعرت أنَّها تريد أن نتحدَّث قليلًا بعد تلك اللَّحظات الطويلة من الصمت، ولم أشأ أن أحرمها من ذلك. وعلى أيِّ حال، لا يحتاج الأمر إلى أن يبقى سرًّا. وهو لا يعني لها أيّ شيء في النهاية.

ـ ربَّما هو في تونس الآن..

ـ تونس!

ـ نعم.. سمعت أنَّه سيسافر إلى تونس مع ابنه.. وسيبقى هناك فترة طويلة.. ثلاثة شهور.. لأنَّه سيشرف على بناء طابق في بيتهم..

ـ وزهرة ستبقى وحدها.. كلّ هذه الشهور؟!

لم أقل شيئًا. استدارت صوبي، وعادت تسألني بلهجة توحي بأنَّ الأمر يهمُّها، خلافًا لما كنت أتصوَّر:

ـ وكيف عرفت كلّ هذا؟

ـ زهرة.. هي التي أخبرتني..

ـ أين؟

ـ هنا.. في البيت قبل أيَّام قليلة..

ـ زهرة تتحدَّث معك في أمور عائليَّة كهذه!؟..

شعرت أنَّني ورَّطت نفسي. قلت، متظاهرًا بعدم الاكتراث:

ـ أحيانًا.. عندما تتوقَّف عن العمل للاستراحة، نتحدَّث قليلًا..

ـ ولماذا تروي لك هذا؟

ـ حدث الأمر تلقائيًّا.. الحديث يجرّ الحديث..

ـ لم أكن أتصوَّر أنَّكما تتحدَّثان في أمور شخصيَّة كهذه..

ـ هذه ليست أمورًا شخصيَّة..

ـ إن كانت هذه الأمور غير شخصيَّة، فما هي الأمور الشخصيَّة إذن؟!.. أن تحدِّثك عمَّا يدور بينها وبين زوجها في غرفة النوم في اللَّيل؟

ـ تعرفين.. علاقتنا نحن التوانسة والعرب ببعضنا ليست مثل علاقات الفرنسيِّين.. نتكلَّم بسهولة مع بعضنا.. ونتحدَّث في هذه الأشياء من دون حرج..

سكتت. وعندما طال صمتها، أردت أن أختبرها لأعرف ما كان يجول في ذهنها. أمسكت بيدها وأخذت أُداعبها. وبعد لحظة طويلة، ضغطتُ على أصابعها. في العادة، تفعل لي الشيء ذاته.

هذه المرَّة، سحبت يدها. عندئذ، فهمت أنَّه لم يرق لها أن أتحدَّث مع زهرة في أمور تعتبرها شخصيَّة.

خشيت أن يدفعها هذا إلى الشكّ فيما كنت أقوله لها عن زهرة، منذ أن بدأت تعمل في بيتنا واكتشاف أنَّ علاقتي بها تتجاوز علاقة مخدوم بخادمته أو تونسيّ بجارته التونسيَّة. قرَّرت أن أصمت بدوري. لعنت منصور في سرِّي. لقد تسلَّل إلى عالمنا الحميميّ في تلك اللَّحظات الجميلة، ودمَّر السَّعادة التي غمرتنا منذ حين.

– 14 –

لم ألاحظ أيّ تغيُّر في سلوك زهرة في أوَّل لقاء لنا في شقَّتي، بعد سفر منصور. انتظرت هذا اللِّقاء على أحرّ من الجمر لمعرفة كيف ستتصرَّف معي الآن، وقد صارت حرَّة، لا أحد يُراقبها ويرصد حركاتها أو يأمرها أو يحاسبها. جاءت كالعادة في الوقت المحدَّد. أنجزت مهمَّتها على أكمل وجه. وتلقَّت درسها باهتمامها المعهود. ثمّ غادرت الشقَّة في الوقت المحدَّد بعد أن سلَّمتُها رواية «عرس الزين»، وأجبت عن سؤالها عمَّا جعل الزين يحبّ الفتاة، كما وعدتها في إحدى زياراتها السَّابقة. لا شيء تبدَّل في مظهرها الخارجيّ أيضًا؛ الثياب ذاتها، ولا أثر لأيّ ماكياج على وجهها. وطوال الوقت الذي أمضته معي في البيت، حاولت أن أسبر أغوارها للعثور على ما يمكن أن يُنبئني بحقيقة حالتها النَّفسيَّة. إلَّا أنَّني لم أفلح. الشيء الوحيد الذي استنتجته من دون أن أكون واثقًا منه، أنَّها لم تكن تعاني من العزلة. وجودها كامرأة لوحدها في شقَّة، لا يُربكها على ما يبدو، ممَّا رسَّخ إحساسي بأنَّها امرأة قويَّة الشخصيَّة.

تتالت لقاءاتنا الأسبوعيَّة، ولم يظهر خلالها ما يشي بأنَّها تغيَّرت ولو قليلًا بعد سفر زوجها. لكن ما حدث فيما بعد لمدام ألبير، كان له تأثير واضح على حالة زهرة النَّفسيَّة، وبالتالي على سلوكها وتصرُّفاتها معي. بل يمكنني أن أقول إنَّ تلك الحادثة، التي لا تمسُّني مباشرة بالرَّغم من تأثُّري لما أصاب جارتي مدام ألبير وتعاطفي الشَّديد معها، كانت لها انعكاسات على علاقتنا. وقعت الحادثة بعد أحد لقاءاتنا الأسبوعيَّة. حالما خرجت زهرة من شقَّتي، شرعت في العمل. لم أكن راضيًا عن الدرس الذي ألقيته على طلَّابي الأسبوع الماضي. بعدما انتهيت من إلقائه، أدركتُ أنَّه لم يكن جيّدًا. رأيت ذلك في نظرات الطلَّاب وهم يغادرون قاعة الدَّرس. بريجيت تعتقد أنَّ السَّبب هو التقدُّم في السنّ، أمَّا أنا، فأعتقد أنَّني لم أعدّه كما ينبغي. لذا، قرَّرت أن أبذل مجهودًا هائلًا في التَّحضير

ليكون الدرس القادم ممتازًا. وبينما كنت مستغرقًا تمامًا في ذلك، سمعت طرقًا قويًّا على الباب. ثمّ تناهى إليَّ صوتها:

ـ افتح.. سي عاشور.. افتح بسرعة..

نهضتُ فورًا وهرعت إلى الباب. حالما فتحته، اندفعت زهرة صوبي كأنَّها تحتمي من خطر داهم. لم أرها أبدًا في مثل تلك الحالة من الذُّعر. مدَّت عنقها صوبي وهي تردِّد:

ـ تعال معي.. تعال.. مدام ألبير..

كان باب شقَّة مدام ألبير مفتوحًا على سِعَتِه. دخلنا وعبرنا ممرًّا طويلًا معتَّمًا. كانت هناك رائحة عَطِنَة تدلّ على أنَّ المكان لم تتمّ تهويته بعد.

ـ ما بها؟.. ماذا حدث؟

ـ لمّا دخلت إلى بيتها، وجدتها على الأرض..

كانت مدام ألبير مستلقية على ظهرها على الأرض من دون أيّ حركة في غرفة الاستحمام. عيناها مغمضتان وساقاها متباعدتان. كانت ترتدي روبًا مفتوحًا عند أعلى فخذيْها. وكانت بلا كيلوت. لم تنتبه زهرة إلى أنَّ جزءًا من عضوها كان مكشوفًا. أشحتُ عنها بوجهي للحظة احترامًا لحميميَّتها، ثمّ تناولت واحدة من المناشف المرتَّبة على مشجب جداري وغطَّيت فخذَيْها. لم أشأ أن أحرِّكها، فقد كنت أعرف أنَّ تحريك من تعرَّض لحادث ولو قليلًا يمكن أن تنجرّ عنه أضرار. لم ألمسها أيضًا لكيلا تبقى بصماتي على جسدها. خشيت إن فعلت ذلك أن أورِّط نفسي. لم أكن أعرف ما حدث لها بالضبط. كنت موقنًا من أنَّها انزلقت، أو فقدت وعيها، أو توقَّف قلبها فجأة عن الخفقان، فالذين هم في عمرها ـ خاصَّة الذين يعيشون بمفردهم ـ غالبًا ما يتعرَّضون لمثل هذه الحوادث. إلَّا أنَّني لم أستبعد تمامًا أن تكون تعرَّضت لاعتداء. صحيح أنَّ باب شقَّتها لم يكن مخلوعًا، فزهرة هي التي فتحته بنسخة من المفتاح، سلَّمَتْها إيَّاها مدام ألبير قبل بضعة أشهر لاستخدامه في حالات الطوارئ. وأنا وزهرة لم نسمع شيئًا يوحي بأنَّ مدام ألبير تتعرَّض لاعتداء ما. لكنَّ الحذر واجب في مثل هذه المواقف. المجرمون واللُّصوص لهم حيلهم وأساليبهم التي لا يمكن تصوُّرها. ثمّ، من المحتمل أن تكون قد تعرَّضت لهذا الاعتداء في عمق اللَّيل، حين كان الجميع يغطّ في النوم. عندما

انحنيت عليها مقرّبًا وجهي من وجهها قدر الإمكان، اكتشفت أنَّها لا تزال تتنفَّس. غمرني السُّرور وخابرت فورًا رجال الإسعاف، فجاؤوا بعد وقت وجيز. فحصوها بسرعة وقدَّموا لها الإسعافات الأوليَّة، ثمّ قرَّروا نقلها إلى المستشفى. لم يقولوا لنا ما أصاب مدام ألبير، لكنَّنا استنتجنا من نظراتهم، ومن خيط الدم الرَّقيق الذي اكتشفوه على خدِّها الأيسر عندما حرَّكوا رأسها، أنَّها في حالة خطرة. وعندما علموا أنَّ زهرة هي خادمتها وهي التي وجدتها في هذه الحالة، سألوها عن الأمراض التي تعاني منها مدام ألبير، وعمَّا تتناوله من أطعمة في الفطور، وعمَّا إذا كانت تعرَّضت في السَّابق إلى حوادث من هذا النوع. بقيتُ مع زهرة. لأوَّل مرَّة نتواجد لوحدنا في شقّة غير شقَّتي. لم أشأ أن أتركها وحيدة. لا تزال آثار الصدمة بادية على وجهها. وكان لا بدّ أن أخفِّف عنها قليلًا. بعد لحظات طويلة، لم نتبادل خلالها سوى بضع كلمات عمَّا يمكن أن يكون قد حدث لمدام ألبير، تذكَّرت تحضيراتي للدرس القادم، فقرَّرت أن أعود إلى بيتي. حين توجَّهتُ إلى الباب للخروج، فوجئتُ بها تقول لي:

ـ لا تذهب..

تطلَّعتُ إليها في صمت، فأضافت متوسِّلة:

ـ أرجوك.. ابق معي قليلًا..

لم أفهم لماذا تريد البقاء في شقَّة مدام ألبير. لا شيء يُرغمها على ذلك. بل بدا لي أنَّ من الأفضل لها أن تغادر المكان لكي تنسى ما عاشته في نهاية ذلك الصَّباح.

ـ ولكن لماذا لا تعودين إلى بيتك الآن؟

ـ لم أنجز عملي..

ـ يمكن أن تقومي به في المساء.. أو غدًا..

ـ لا.. لا يجوز أن أترك الشقَّة قذرة..

لم أكن أنتظر إجابة من هذا النوع بعد كلّ الذي حدث. أعرف أنَّها خادمة ممتازة وأنَّها تريد دائمًا أن تؤدِّي عملها على أكمل وجه. ومع ذلك، لم أقتنع بما قالته. صحيح أنَّ الشقَّة تحتاج إلى تنظيف، لكنَّها ليست مضطرَّة إلى أن تقوم بهذا الآن. ليس هناك ما يدعو إلى الاستعجال. مدام ألبير

في المستشفى. وقد ترقد فيه لفترة طويلة. وربَّما لن تعود إليها أبدًا. الشيء الوحيد الذي ينبغي أن تقوم به الآن هو فتح النوافذ لتهوية الغرف والتَّخلُّص من هذه الرَّائحة الكريهة. وهذا لا يحتاج إلَّا إلى بضع دقائق.

ـ ألا يمكنك أن تبقى وحدك؟

ـ لا.. أخاف..

ـ تخافين!.. ممَّ تخافين؟..

ـ لا أدري..

ـ ولكن أنا موجود بالقرب منك.. إن شئت، أترك باب شقَّتي مفتوحًا..

اقتربت منِّي. منذ فترة طويلة، لم تقترب منِّي إلى هذا الحدّ. خُيِّلَ إليّ أنَّها شعرت برغبة في أن أحتضنها لكي أحميها. بَيْد أنَّها لم تستسلم لها في آخر لحظة. شممتُ رائحتها. خليط ممَّا يشبه العطر وكلّ ما أفرزه الجسد طوال الساعتَيْن من العمل الذي أنجزته في بيتي. لكنَّها كانت مُهيِّجة إلى حدّ ما. لم أستطع أن أبتعد عنها بالرَّغم من أنَّني كنتُ أرغب في ذلك، فلعنت الشيطان في سرِّي. لم أكن أتصوَّر أنَّ إحساسًا كهذا سينتابني ونحن في مثل تلك الحال، وداخل بيت تشارف صاحبته على الموت، هذا إن لم تكن قد ماتت بعد وهي في سيَّارة الإسعاف في طريقها إلى المستشفى. ولأوَّل مرَّة، تساءلت عمَّا إذا كان لديَّ شذوذ أو انحراف ما. ميل إلى الفُسق. لقد قرأتُ ذات مرَّة في مجلَّة أنَّ لدى البشر ميولًا غامضة دفينة لا تظهر إلَّا في ظروف محدَّدة. وحتّى إن ظهرت، فتَحت أقنعة بحيث لا يمكننا أن نتعرَّف عليها.

شرعتْ في تنظيف البيت. فتحتْ كلّ النوافذ وسوَّتْ الفراش ومسحت أرضيَّة الصالون. كنتُ أرقبها بإعجاب. وكانت هي تعرف أنِّي أراقبها. كنت على يقين من أنَّ مراقبتي لها لا تُضايقها. بين الحين والآخر، تلتفتُ إليَّ. ثمَّة شيء آخر انضاف الآن إلى ما كان يجمعني بها. قدَّمت لها خدمة كبيرة وفي ظرف عصيب. لم أتخلّ عنها في الوقت الذي احتاجت فيه إليّ. ولم أتردَّد لحظة واحدة. حالما التجأت إليَّ، فتحت لها ذراعيّ. كنتُ في قرارة نفسي مغتبطًا وسعيدًا بما فعلت. ومن المؤكَّد أنَّ زهرة أعجبت بذلك. غادرنا شقَّة مدام ألبير معًا. وقبل أن نفترق، طلبت منِّي ألَّا أخبر أحدًا بما

حدث. وحين هززت رأسي موافقًا، أمسكت بيدي وصافحتني. ثمّ انصرفت. ليس من عادتها أن تُصافحني حين نتبادل التحيَّة، كما أنَّها تُمسك بيدي للمرَّة الأولى. راق لي ذلك. بيد أنَّني لم أحاول آنذاك أن أذهب بعيدًا في تأويله. عزوت ذلك إلى حالتها النَّفسيَّة. لعلَّها كانت مرتبكة إلى الحدّ الذي لم تَعُد معه قادرة على السَّيطرة على حركاتها. وربَّما لم تكن واعية تمامًا بما فعلت، أو نسيت في تلك اللَّحظات من أنا وطبيعة علاقتي بها، فتصرَّفت معي كما لو أنِّي أحد أقاربها الذين تلجأ إليهم في غياب زوجها وابنها.

رجعت إلى بيتي واستأنفت فورًا تحضير الدَّرس. بعد دقائق قليلة من العمل، أدركتُ أنَّ حماسي بدأ يفتر وأنِّي لم أعد قادرًا على التَّركيز وأنَّني لم أتخلَّص من الاضطراب الذي اعتراني بسبب ما حدث لمدام ألبير وكلّ ما تلاه من حالات ومواقف. وما فاقم اضطرابي هو أنَّ سؤالًا بدأ يتسلَّل إلى ذهني شيئًا فشيئًا حتّى استحوذ عليه. لماذا تريد زهرة ألَّا أُخبر أحدًا بما حدث لمدام ألبير؟ هل تريد أن تخفي شيئًا ما؟ وتناسلت الأسئلة من بعضها البعض إلى أن ألفيتُ نفسي أمام سؤال غريب أثار في نفسي الرُّعب. سؤال لم أكن أتصوَّر إطلاقًا أن يخطر ببالي يومًا ما أو حتّى أن يخامرني ولو لثانية واحدة. لكن، ماذا لو كانت زهرة هي المسؤولة عمَّا حدث لمدام ألبير؟ ماذا لو كانت دفعتها عن قصد لسبب ما؟ ربَّما خاصمتها مدام ألبير أو أهانتها، فأرادت أن تنتقم منها. هناك عجائز قاسيات القلوب على الرَّغم من مظهرهنّ الخارجيّ الذي يوحي بالطِّيبة. وهناك عجائز شرّيرات ومتعاليات. وهناك أيضًا عنصريَّات يعاملن خادماتهنّ كما لو أنَّهنَّ عبيد. ربَّما استبدّ الخوف بزهرة حين رأت مدام ألبير قد فقدت وعيها بعد أن دفعتها، فلجأت إليَّ. وربَّما أرادت أن تستخدمني كشاهد محتمل عندما يكتشف الأطبَّاء أنَّ سقوط مدام ألبير لم يكن طبيعيًّا، فيشكُّون فيها. ولهذا السَّبب، أصرَّت زهرة أن أرى مدام ألبير وهي على الأرض. ما سأقوله عمَّا شاهدته سيدعم شهادتها على الأرجح، وهكذا، ستنجو من تهمة خطيرة ستؤدِّي حتمًا إلى الزجّ بها في السجن، وخاصَّة إن توفيَّت مدام ألبير.

فجأة، اندفعت واقفًا وأخذت أخطو في الصالون. كنت كمَنْ أفاق لتوِّه من كابوس. سخرتُ من نفسي. كيف أستسلم لأفكار من هذا النوع؟ من المستحيل أن تُقدِم زهرة على اقتراف هذا الجرم. أمَّا مدام ألبير، فهي امرأة طيِّبة كريمة. وهي ليست شرّيرة ولا عنصريَّة.

– 15 –

شقَّة مدام ألبير فارغة موصدة الآن، فقد قرَّر الأطبَّاء الاحتفاظ بصاحبتها في المستشفى. ومع ذلك، لم تتوقَّف زهرة عن التردُّد عليها كلَّ يوم لتنظيفها وتهويتها. كانت تريدها أن تكون على أحسن ما يرام عندما تعود إليها مدام ألبير. وكانت تطلب منِّي أن أكون إلى جانبها في الشقَّة. كانت لا تتحمَّل البقاء فيها وحدها. فهي تجدها موحشة، وكلّ ما فيها يذكِّرها بما حدث لمدام ألبير. وكنت أستجيب لطلبها قدر المستطاع.

ومنذ لقائنا الأوَّل في شقَّة مدام ألبير، لاحظت أنَّ زهرة تتصرَّف على نحوٍ مختلف. صارت أكثر تلقائيَّة وحريَّة. كأنَّها كانت تخشاني قليلًا في بيتي. كأنَّ وجودي داخل عالمي الحميميّ بين كتبي وأثاثي وأشيائي المختلفة يقف حاجزًا بيني وبينها. لم تكن تشعر على ما يبدو براحة تامَّة في شقَّتي، على الرَّغم من أنِّي كنت أفعل المستحيل كيلا تحسّ بأيّ حرج. هل أنَّ وجودها في شقَّتي يذكِّرها باستمرار بأنَّها خادمة وأنا سيِّدها؟ ولعلَّ ما يُزعجها هو أنَّ البيت ليس لي وحدي، فهو لبريجيت أيضًا. وزهرة ترى بالتَّأكيد أشياءها في كلِّ مكان في الشقَّة، وربَّما تشمّ حتّى رائحتها. الأنثى تترك دائمًا رائحتها في الأمكنة التي تتردَّد عليها.

الآن صرنا نلتقي في مكان محايد، فهو ليس بيتي وليس بيتها. فضاء عشنا فيه قبل بضعة أيّام تجربة مؤلمة، وتقاسمنا فيه همومنا وخوفنا وألمنا، وخاصَّة تساندنا فيه. كلّ هذا قرَّبنا من بعضنا بعضًا. وشيئًا فشيئًا، انخرطنا من جديد في لعبة الغواية. لم أكن أنتظر أن يحدث لنا هذا في شقَّة مدام ألبير. والأمر تمَّ تلقائيًّا. وزهرة هي التي بدأت ذلك. وفورًا، أدركتُ أنَّ اللُّعبة صارت ألذّ. وأصبح لها طعمٌ خاصّ الآن، وقد صار منصور، الذي كنَّا نحسّ أنَّ شبحه يحوم حولنا في أغلب لقاءاتنا السَّابقة، على بعد ألفيْ كيلومتر منَّا.

ذات مرَّة، جاءت برواية «عرس الزين». كانت قد أخبرتني قبل فترة قصيرة أنَّها شرعت في محاولة قراءة الصفحة الأولى منها. كنت جالسًا في المطبخ أرتشف على مهلٍ القهوة التي أعدَّتها لي قبل لحظات. صارت تعدّ لي في كلِّ مرَّة أرافقها إلى شقَّة مدام ألبير، قهوة لتشكرني على حضوري كما تقول. وكانت حريصة على أن تعدّ هذه القهوة من بنّ وسكر تأتي بهما من بيتها، فهي ترفض أن تتصرَّف فيما ليس لها، وخاصَّة في غياب صاحبة البيت. جلست إلى جواري، ثمّ فتحت الرواية. قرأت سطرَيْن كاملَيْن بصوتٍ عال، ثمّ تطلَّعت إليَّ وسألتني عن رأيي. في الحقيقة, لم تقرأ، وإنَّما تهجَّت. صحَّحتُ لها كلّ الأخطاء في النطق التي ارتكبتْها، ثمّ شرحتُ لها الكلمات التي لم تفهمها. قرأَتْ السَّطرَيْن من جديد، ولم ترتكب سوى ثلاثة أخطاء بسيطة. أُعجبت بقدرتها الهائلة على الاستيعاب، فقلت لها:

ـ خسارة أنَّك لم تدخلي المدرسة..

التمعَت عيناها فرحًا. منذ مرض مدام ألبير، لم أرها في مثل هذه الحال من السرور. ولكي أزيد في إسعادها، أضفت بلهجة واثقة:

ـ لو دخلت المدرسة لكنتِ الآن أستاذة.. مثلي.. أو أفضل منِّي..

ـ لو دخلت المدرسة لكنت ممرِّضة..

ـ ممرِّضة!.. تحبّين جوّ المستشفيات؟

ـ آ..

ـ ولكن لماذا ممرِّضة؟.. لماذا لا تريدين أن تكوني طبيبة؟

ـ طبيبة؟..لا.. لا أريد.. الطبيب مسؤول عن الموت أو الحياة.. أمَّا الممرِّضة، فلا.. شغلها هو أن تعتني بالمرضى فقط.. وهذا عمل سهل..

أغلقت الرواية وعادت إلى عملها. لم تكن الشقَّة في حاجة إلى تنظيف. وكلّ ما فيها من أثاث مرتَّب. ولكن زهرة لا تريد أن تتوقَّف عن العمل. لقد تعوَّدت على ذلك. وهي تحبّ الحركة والنشاط. والآن، صار لديها وقت كثير. فهي لم تَعُد تطبخ الطعام لمدام ألبير أو ترافقها في جولتيْها اليوميَّتيْن،

كما أنَّها لم تَعُد تعتني بمنصور وابنها. لذا، أصبحت تقضي وقتًا طويلًا في عمليَّة التَّنظيف. تساءلت عمَّا إذا كانت تفعل هذا كي تبقيني معها في المكان، فهي تعرف أنَّني لن أغادره وأتركها وحدها طالما هي تعمل. عندما فرغَت من التَّنظيف، نهضتُ وسرت صوب الباب. كنت أتصوَّر أنَّنا سنغادر المكان وهذا ما نفعله في العادة فور إكمال عملها. لكنَّها لم تتبعني. سحبت كرسيًّا وجلست. ثمّ طلبت منِّي أن أجلس بجوارها. كنت قد أخبرتها أنَّه لا عمل لي في ذلك الصباح، لا في بيتي ولا في الجامعة. ومن الواضح أنَّها تريد أن تستفيد من هذا. ظننت أنَّها ستعود إلى قراءة سطريْن آخريْن من «عرس الزين، وأنَّها تحتاج إلى مساعدتي. إلَّا أنَّها لم تفتح الرواية. ظلَّت لدقيقة صامتة مطرقة الرأس، كأنَّها تفكِّر فيما ستقوله. وعندما رفعت رأسها، التمع موضع ما من شفتَيْها. عندئذ، انتبهت إلى أنَّهما مطليَّتان بطلاء خفيف جدًّا بلون شفتَيْها.

ـ لقد كذبت عليك..

لم أفهم قصدها. انحنيتُ صوبها، ثمّ رحتُ أتأمَّل وجهها.

ـ قبل فترة، حدَّثتك عن عائلتي في تونس.. وعن نزوحنا إلى العاصمة.. قلت لك آنذاك إنَّ أبي رفض أن ندخل أنا وأختي المدرسة.. هل تذكر؟

ـ نعم..

ـ أمِّي هي التي رفضت..

ـ لماذا؟

ـ خالي أمرها بأن ترفض.. نسيتُ أن أقول لك إنَّه كان لنا خال.. كان قد نزح إلى تونس قبل نزوحنا.. هو الذي استقبلنا في العاصمة.. لم نكن نعرف سواه.. آوانا في بيته إلى أن استطاع أبي أن يستأجر غرفة.. كان أكبر من أمِّي.. وكانت تحترمه كثيرًا.. وكان له تأثير عليها..

ـ ولماذا أمرها بأن ترفض؟

ـ كان متديِّنًا جدًّا.. وكان يرى أنَّ البنت لا يجب أن تدخل المدرسة.. وفي البداية، لم يكن يوافق حتّى على شغلنا في البيوت.. لكنَّ أبي لم يأخذ برأيه.. أبي أيضًا كان يحترم خالي.. ولكن هذه

المرَّة، لم يستمع إليه.. وعلى أيِّ حال، لم يكن لديه خيار آخر.. كان لا بدَّ أن نشتغل أنا وأختي لمساعدته على إعالة العائلة..

أوَّل سؤال تبادر إلى ذهني: لماذا كذبت عليَّ؟ والثاني: لماذا تروي لي هذا الآن؟ الموضوع لا يهمُّني كثيرًا في الحقيقة. هناك أطفال وبنات كثيرون من جيلها لم يدخلوا المدرسة لأسباب مختلفة، والرجال من نوع خالها لم يكونوا نادرين في تونس. ربَّما روته لي الآن لأنَّه يمثِّل شيئًا أساسيًّا بالنِّسبة إليها. وربَّما تمهِّد به لشيء آخر أهمّ ستقوله لي فيما بعد. ما شدَّ انتباهي وأبهجني هو أنَّها صارت تثق بي كثيرًا، فلو لم تكن كذلك، لما روت لي هذه الحكاية، فهي ليست مضطرَّة إلى ذلك إطلاقًا.

ـ كان متزمِّتًا.. وكان يكره بورقيبة.. كان يشتمه باستمرار.. وكان يقول عنه إنَّه كافر وإنَّه يكره الإسلام.. هل هذا صحيح؟

ـ لا أظنّ أنَّه كان كافرًا وأنَّه كان يكره الإسلام.. كان يكره المسلمين التقليديِّين..

ـ التقليديِّين!.. ما معنى التقليديِّين؟

ـ الذين لا يريدون أن يتطوَّروا..

حرَّكت رأسها، وقالت:

ـ أنا لا أفهم في هذه الأمور.. لكن أحبّ بورقيبة.. كنت أريد أن أتفرَّج عليه في التلفزة وهو يخطب.. يعجبني كلامه.. وتعجبني حركاته..

تذكَّرتُ النقاشات الساخنة التي كانت تدور حول سياسة بورقيبة مع أصدقائي التونسيِّين في الفترة التي كنت ألتقيهم فيها. أحدهم كان منبهرًا به ولا يتحمَّل أن نشتمه. كنَّا، حين نريد أن نضحك أو نسخر منه، نفتح ملفّ بورقيبة. كان ينفعل عندما يسمع كلامًا سيِّئًا عنه أو حتّى عندما نقارنه بعبد الناصر الذي كان ينتقده كثيرًا كزعيم ويعتبره مبتدئًا في السياسة مقارنة ببورقيبة.

نهضت زهرة وأغلقت نافذة الصالون التي أبقتها مفتوحة طوال الوقت الذي قضيناه في الشقَّة. ثمّ قامت بجولة تفقُّديَّة كالعادة في أرجاء البيت للتأكُّد من أنَّ كلَّ شيء على ما يرام قبل أن

نغادره. وبينما كنَّا نتوجَّه إلى الباب للخروج، سألتني:

ـ وكيف كانت أمّك؟

كنتُ قد حدَّثتها عن أمِّي حين سألتني عن عائلتي في لقاءاتنا الأولى. قلت لها إنَّها توفِّيت وأنا في العاشرة من عمري، وإنِّي كنت أحبُّها أكثر ممَّا كنتُ أحبّ أبي. قلت لها أيضًا إنَّها كانت هزيلة وتعاني من مرض السلّ، وإنّي كنتُ أتألَّم عندما أراها تسعل طوال اللَّيل في أيَّامها الأخيرة. لا أدري لماذا سألتني عنها آنذاك. ربَّما ذكَّرها حديثها عن أمِّها بأمّي. لعلَّها أرادت أن تظهر لي أنَّها هي أيضًا تهتمّ بعائلتي. لم تكن لديَّ آنذاك أيّ رغبة في الحديث عن أمِّي ولا عن أيّ شيء آخر، وفي الحقيقة، فقد بدأت أشعر بالتعب. وأحسست برغبة في العودة إلى بيتي. أجبتُها بلا اكتراث:

ـ مثل كلّ الأمّهات في تونس..

بعد أن أغلقت الباب، شكرتني على حضوري معها. كنتُ قد تعوَّدت على هذا، فهي تقوم به في كلِّ مرَّة. لكن ما تفاجأت به هو أنَّها أمسكت بيدي وضغطت عليها قليلًا قبل أن تُفارقني. كانت قد فعلت لي الشيء ذاته في اليوم الذي وجدَت فيه مدام ألبير فاقدة الوعي في غرفة الاستحمام واستنجدت بي. آنذاك، عزوتُ الأمر إلى صدمتها وارتباكها الشديد، لكن هذه المرَّة، كانت هادئة ومتماسكة. ما قامت به لم يكن تلقائيًّا إذن. إنَّها ليست مراهقة، وهي تدري بالتأكيد ماذا تفعل حين أمسكت بيدي. كما أنَّها تعرف جيّدًا أنَّ هذه الحركة، على بساطتها، سيكون لها تأثير قويّ عليّ. ثمّ إنَّها لم تكتف بإمساك يدي، بل إنَّها ضغطت عليها قليلًا.

عدتُ إلى شقَّتي مشوَّش الذهن، وسعيدًا في الآن ذاته. هل تريد بحركتها هذه أن نغيِّر قواعد لعبة الغواية؟ هل ترغب في أن نتجاوز الحدود التي رسمناها إلى حدود أبعد؟ حتّى ذلك الوقت، كانت اللُّعبة بسيطة وبريئة ومسليَّة، على الرَّغم من تأثيراتها وتداعياتها. وفيما يخصُّني، كان هناك، بالإضافة إلى هذه اللُّعبة، حبّ لزهرة ما زلت أصرّ على أن يظلّ سرِّيًّا، وخاصَّة عذريًّا، لأنِّي لا أرغب بتاتًا في أن أخون بريجيت، وأن أخوض مغامرة عاطفيَّة جديدة، لا أدري إن كنت قادرًا على تحمُّل تبعاتها الجسديَّة والنَّفسيَّة والعاطفيَّة. وما يزيد في إرباكي وفي تشويش الرؤية، هو أنَّ هذه الحركة تحدث في غياب زوجها وابنها، وفي فترة حسَّاسة اقتربنا فيها من بعضنا بعضًا أكثر من قبل بسبب ما حدث لمدام ألبير.

– 16 –

إنَّها أوَّل ليلة أقضيها وحدي في البيت منذ فترة طويلة. بريجيت سافرت إلى برشلونة، حيث المقرّ الرئيسيّ للبنك الذي تعمل في فرعه في باريس. كانت قد استلمت استدعاء لحضور عدَّة اجتماعات مع مدير البنك والموظَّفين الكبار فيه. سافرت في الصَّباح الباكر، وكان من المفروض أن تعود إلى باريس في نهاية المساء، لكنَّها خابرتني لتُعلِمَني بأنَّها اضطرَّت إلى تأجيل عودتها إلى الغد لأنَّها لم تتمكَّن من إكمال مهمَّتها. أعترفُ بأنَّني سررت بالخبر. سيكون كلّ البيت، وخاصَّة كلّ الفراش، لي طوال اللَّيل. وسأتناول عشائي متى أشاء وكيفما أشاء. لن ألتزم بتعليمات بريجيت التي تحرص على أن نتعشَّى على الطاولة، وفي وقت محدَّد وهو الساعة الثامنة.

أمضيت سهرة رائعة. ليس في غرفة سامي، كما أفعل حين تكون بريجيت في البيت، وإنَّما في الصالون الذي استأثرَت به منذ فترة، وخاصَّة بعد تفاقم مرضها. شاهدت خلالها فيلم «تيلما ولويز» لريدلي سكوت. لقد سبق أن شاهدته مرَّتيْن. هناك أفلام لا أملّ مشاهدتها و«تيلما ولويز» واحد منها. عندما أعجب بفيلم، أشتري الـ «دي في دي» فور صدوره. وهكذا، أستطيع أن أشاهده في بيتي متى أريد.

كنت أتصوَّر أنَّني سأنام جيّدًا بعد تلك السهرة الجميلة. لكنّ النوم جافاني. غادرتُ غرفة النوم وعدت إلى الصالون، ثمّ تمدَّدت على الكنبة. لم أفتح التلفزيون في مثل ذلك الوقت المتأخِّر خوفًا من أن أزعج الجيران. تناولت واحدة من المجلَّات النسائيَّة التي كانت تشتريها بريجيت، ورحت أتصفَّحها متطلِّعا إلى الصُّور. أغلبها لنساء. الكثير منهنَّ جميلات وعدد منهنَّ في ثياب داخليَّة أو عاريات. أذكر أنِّي كنتُ في الأعوام الأولى من إقامتي في باريس مولعًا بمشاهدة صور النساء العاريات. وما كان يجتذبني إليها هو جمال أجساد النساء الذي لم يسبق أن شاهدت مثيلًا له. كأنَّها

ليست لمخلوقات بشريَّة، وإنَّما لمنحوتات. وفيما بعد، عندما تعرَّفت على بريجيت، تلاشى إعجابي بها، فقد أخبرتني أنَّ هذه الأجساد ليست هكذا في الواقع، فالمصوّرون يُدخلون عدَّة تعديلات على الصُّوَر، ويحذفون كلّ ما في الأجساد من عيوب. أعدت المجلَّة إلى مكانها، ورحتُ أنظر بلا اكتراث إلى السقف. عندئذ، تذكَّرت ما فعلته لي زهرة قبل أيَّام عندما غادرنا شقَّة مدام ألبير. كنت قد أقنعتُ نفسي بألَّا أولي تلك الحركة اهتمامًا أكثر ممَّا تستحقّ، وأفلحت في نسيانها إلى حدٍّ ما. لكن الآن، وأنا وحيد في الشقَّة وفي مثل ذلك الوقت، ووسط صمت اللَّيل الهادئ العميق، بدت لي تلك الحركة ذات دلالة أعمق وأخطر ممَّا خطر ببالي حتّى ذلك الوقت. ولم يتوقَّف الأمر عند هذا الحدّ، فقد أدركت أنَّني لم أحسن التصرُّف آنذاك وأنِّي كنت سلبيًّا. كان من المفروض أن أقول لها شيئًا ما، أو أطرح عليها سؤالًا، أو بكلّ بساطة، أضغط بدوري على يدها لأختبر قصدها ولأرى ردَّة فعلها. ولا يُعتبر هذا تحوُّلًا في موقفي من اللُّعبة أو خرقًا لكلّ ما كنتُ قد التزمت به منذ بدايتها. ثمّ لا خوف من أن تنهار إرادتي إن قمت بهذا، فأنا واثق من نفسي وقادر على التَّحكُّم في أحاسيسي.

إنَّها وحيدة الآن في بيتها. وأنا وحيد. من المفروض أن تكون نائمة. ولكن من يدري. لعلَّ النوم جافاها هي أيضًا لسببٍ ما. ربَّما تفكِّر هي أيضًا فيّ مثلما أفكِّر فيها الآن. وربَّما تذكَّرت مثلي ما حدث لنا ونحن نفترق أمام باب شقَّة مدام ألبير. ربَّما انتبهت الآن إلى دلالة ما فعلته لي. هناك أشياء نقوم بها من دون أن نفكِّر أو تلقائيًّا. لا تبدو لنا مهمَّة حين نفعل ذلك. ولكن بعد وقت معيَّن، وفي ظروف أخرى، وفي حالات نفسيَّة مختلفة، تتغيَّر نظرتنا لها. وعندئذ، ندرك مغزاها وتداعياتها على الآخرين. ولا أدري كيف عنَّت لي بغتة فكرة لم تخطر ببالي أبدًا من قبل. لعلَّها ليست وحيدة الآن كما أظنّ. ربَّما هي برفقة جارها مسيو غونزاليس الإسبانيّ وفي.. بيته! من المؤكَّد أنَّه لاحظ، منذ عدَّة أيَّام، غياب منصور وابنها كريم. وربَّما يعلم أنَّهما سافرا إلى تونس. من المحتمل جدًّا أنَّه أشفق عليها وهو يراها وحيدة، فدعاها إلى بيته لتمضية السهرة برفقته ليخفِّف عنها الإحساس بالعزلة. لا أتصوَّر أنَّ زهرة ستقبل دعوة من هذا النوع، خاصَّة في غياب زوجها. ولكن كلُّ شيء ممكن في هذه الحياة. ليس هناك ما هو أقسى من العزلة، وهناك أناس لا يملكون ما يكفي من القدرة لتحمُّلها لوقت طويل.

مسيو غونزاليس رجل طيِّب ومهذَّب. أغلب الجيران في العمارة يحترمونه ويحبُّونه ويثقون فيه. ولأنَّه اشتغل عدَّة مِهَن قبل أن يُحال على التقاعد، فهو ماهر في الكثير من الأشغال اليدويَّة. وهو لا يتردَّد في تقديم المساعدة في أيِّ وقتٍ لكلِّ من يلجأ إليه لإصلاح عطل ما. ولهذا السَّبب، فهو

يعرف العديد من شقق العمارة. وما يزيد في احترام السكَّان له، أنَّه يقوم بالإصلاحات الصَّغيرة مجَّانًا. ولا يطلب مقابلًا مادِّيًّا إلَّا عندما تستغرق عمليَّة الإصلاح وقتًا طويلًا، أو يلحُّون عليه كما تفعل مدام ألبير التي تلجأ إليه باستمرار. مبدئيًّا، ليست هناك أيّ مشكلة في أن تقضي زهرة سهرة برفقة مسيو غونزاليس في بيته. لكن ماذا لو كان هذا الإسبانيّ يُكنّ لها في السرّ شيئًا ما؟ ماذا لو كان قد استغلّ غياب منصور ويسعى إلى التَّقرُّب إليها؟ لعلَّه مُعجب بها مثلي؟ أستبعدُ ذلك، فهو في سنٍّ متقدِّمة. ولكن التقدُّم في العمر لا يحولُ دون الاهتمام بالنساء. وهو ليس أكبر منِّي بكثير على أيِّ حال. لا شيء إذن يمنعه من أن يُعجَب بزهرة أو حتّى يتعلَّق بها. إنَّه مثل كلّ البشر؛ له مشاعر وقلب ينبض. ثمّ إنَّه وحيد منذ فترة، وزهرة امرأة لا يزال لديها ما يمكن أن يجتذب الرجال. وبعض الأوروبيِّين يحلمون بالنِّساء العربيَّات الشرقيَّات، ومخيِّلاتهم تنسج لهم استيهامات كثيرة عنهنَّ. وشيئًا فشيئًا، ألفيت نفسي تغرق في بحر هذه الأفكار، وأخذ إحساس بالغيرة يتشكَّل داخلي. لم أتصوَّر يومًا أنِّي سأغار من مسيو غونزاليس. أن أغار من رجل أفضل مقامًا أو أكثر وسامة أو أصغر سنًّا منِّي، فهذا مفهوم. أمَّا أن أغار من عجوز طيِّب مسالم خدوم دائم الابتسام مثل مسيو غونزاليس، فهذا غريب ومؤلم. هذا دليل على أنَّ الأمور تفلت منِّي وعلى أنِّي أتدهور إلى حدٍّ بعيد.

خطر ببالي أن أتلفن لبريجيت. من المحتمل أنَّ حديثًا طويلًا معها عمَّا دار أثناء اجتماعاتها مع مدير البنك والموظَّفين الكبار فيه وانطباعاتها عنها، سيُنسيني هذا الموضوع. لم نتحدَّث عن هذا عندما خابرتني لإعلامي بتأجيل عودتها. كلّ الوقت الذي استغرقته المكالمة خصَّصته للحديث عن إعجابها بالفندق الفاخر الذي استأجر لها فيه البنك غرفة، وعن طبق البابيلا اللَّذيذ الذي تناولته في مطعم صغير، وعن جولتها في شارع ليرمبلاس، وعن أسفها لعدم التَّمكُّن من زيارة بيت أنطوني غاودي الذي تحرص على زيارته كلَّما سافرت إلى برشلونة. أعرف أنَّها لا تنزعج من أن أُهاتفها حتَّى عدَّة مرَّات في اليوم، عندما تكون في بلد أجنبيّ. لكنَّ المشكلة أنَّ الوقت متأخِّر. من المحتمل جدًّا أن تكون نائمة. أخشى أن أوقظها، والأخطر من ذلك، أن تشعر بالخوف حين تسمع رنين الهاتف في مثل ذلك الوقت. لا أحد يمكنه أن يُهاتفها سواي في عمق اللَّيل. ستفكِّر أنَّ الأمر عاجل وخطر. ستظنّ أنَّ مصيبة حدثت لي أو لابننا.

اندفعت واقفًا. ثمّ عدتُ إلى غرفة النوم. استلقيتُ على الفراش وتكوَّرتُ داخل الغطاء آملًا أن أنسى كلَّ هذا. وبعد لحظات طويلة، تبيَّن لي أنَّ انخراطي في النوم بات مستحيلًا، وأنَّ عليَّ أن أتقبَّل ذلك بأكثر ما يمكن من الصبر. ومن حسن الحظّ، أنَّه لا شيء مهمًّا ينتظرني في اليوم التالي؛ لا

درس في الجامعة، ولا مهمَّة يجب إنجازها. أشعلت الضوء، ورحتُ أبحث عمَّا يُمكن فعله لاستعادة هدوئي.

وبعد وقت قصير، قرَّرت أن أصعد إلى الطابق الخامس حيث شقَّة مسيو غونزاليس. هذا هو الحلّ ولا شيء آخر سواه إن أردتُ أن أعرف إن كانت زهرة في بيته. سأظلّ أتعذَّب إن لم أقم بهذا. سأقترب من باب الشقَّة قدر الإمكان وأنصت. كلُّ هذا لا يستغرق سوى بضع دقائق. المهمّ أن أكون حذرًا جدًّا كيلا ينتبه إلى وجودي مسيو غونزاليس أو يراني أحد من الجيران، وإن كنتُ أستبعد ذلك، فالجميع يغطّ في النوم. إن لم أسمع شيئًا، وهذا ما أتمنَّاه، فسأطمئنّ وأفلح في التَّحرُّر من هذه الأفكار التي تسلَّلت إلى ذهني.

حالما خرجت من البيت، تسلَّقت الدرج بسرعة. كان لا بدَّ أن أنجز مهمَّتي في أقصر وقت ممكن. في العادة، أشرع في اللّهاث عندما أصعد ثلاثة طوابق من دون توقُّف وبسرعة. هذه المرَّة، لم أحسّ بأيّ تعب، كأنَّ قوى خفيَّة كانت تدفعني إلى الأمام. لم أشعل الضوء. ومن حسن الحظّ أنَّ الظلام لم يكن كثيفًا. كان هناك نور شحيح، لعلَّه من فانوس بعيد في الشارع يتسلَّل إلى العمارة عبر النوافذ القريبة من الدرج. وحين بلغت الطابق الخامس، انتبهت إلى أنِّي لم أغيِّر ملابسي وأنِّي كنت في ثياب النوم. لاحظت أيضًا أنِّي لم أنتعل حذائي. قدماي كانتا في خفٍّ بالٍ، كان من المفروض أن ألقي به في حاويات القمامة منذ زمن طويل. ومن المؤكَّد أنَّ شعري لم يكن ممشوطًا. وفورًا، تذكَّرت منصور. كنت أستغرب مثل كلّ سكَّان العمارة، خروجه في ثياب قديمة فضفاضة منتعلًا خفًّا. ها أنا أفعل مثله!

دنوتُ من شقَّة مسيو غونزاليس ومدَّدت عنقي وأنصتّ. لا صوت ولا حركة داخلها. كان الصمت عميقًا جدًّا إلى درجة أنِّي كنتُ أسمع دقَّات قلبي. لا أحد في بيت مسيو غونزاليس سواه. وزهرة لا تقضي إذن السَّهرة برفقته. وهي بالتأكيد في بيتها. كلُّ ما خطر ببالي منذ حين هي مجرَّد وساوس وأوهام. ساورني شعور عميق بالاطمئنان. ولم أبرح المكان للتوّ. مكثتُ هناك لحظة للتمتُّع بهذا الاكتشاف. أثناء نزول الدرج، تناهت إليَّ جلبة خفيفة. وبينما كنتُ أحاول أن أعرف طبيعتها أو أحدِّد مصدرها، غمر الضوء بغتة المكان. هناك من أشعله في طابق ما من العمارة. شخص عائد إلى بيته أو يغادره. ألفيتُ نفسي مكشوفًا عاريًا. كنت بين الطابق الثاني والأوَّل. لم تَعُد تفصلني عن بيتي سوى بضع خطوات. لو لم أتباطأ أمام شقَّة مسيو غونزاليس لكنتُ في شقَّتي آنذاك. هرعتُ إلى

أقرب ركن وانتصبتُ ملتصقًا بالجدار. سمعت وقع أقدام، تلاه صوت المصعد وهو يتحرَّك. ولم أعرف أنَّه يصعد إلَّا عندما مرَّ أمامي.

استلقيت على الفراش. كنت راضيًا عن نفسي. لقد أنجزتُ مهمَّتي على أكمل وجه. خاطرت ونجحت. والأجمل من كلِّ هذا، أنّني صرتُ على يقين تامّ من أنَّ مسيو غونزاليس لا يزال كما أعرفه ويعرفه الجميع في العمارة؛ رجل طيِّب مهذَّب خدوم ولا يشكِّل أيّ خطر عليَّ ولا على غيري، لذا، لا يجب أن أخشاه أو أغار منه. الآن، سأنام بعمق. وباستطاعتي أن أستيقظ متى أشاء. لا شيء يدعوني إلى الاستيقاظ في وقت مبكِّر. سأفعل مثل بريجيت التي تنام حتّى الضحى في الأيَّام التي لا تشتغل فيها.

لكن ما إن أغمضتُ عينيّ، حتّى تراءت لي حالة الإهمال التي كنت فيها عند صعودي للطابق الخامس. ومن جديد، تذكَّرت منصور. كنت أتصوَّر أنَّنا مختلفان كثيرًا، بل إنَّنا على طرفيْ نقيض، بالرَّغم من أنَّنا تونسيَّان، وهو أمر لا يعني شيئًا في النهاية؛ إذ إنَّ هناك أصنافًا عديدة من التونسيِّين، ليس في الخارج فقط وإنَّما داخل تونس ذاتها. ولكن في الحقيقة، هناك أشياء تجمعنا. وقد نكون متشابهيْن إلى حدٍّ لا يمكن أن يخطر ببالي. فنحن مغتربان نقيم في المدينة نفسها، وفي الحيّ نفسه، وفي العمارة ذاتها. وكلانا يمتلك شقَّته. والأهمّ من ذلك، كلانا له علاقة بالمرأة نفسها. هو زوجها وأنا مُعجب بها وعاشقها السرّيّ. الغريب أنِّي كنتُ أعرف كلَّ هذا. إلَّا أنِّي لم أستوعبه أبدًا. وربَّما لم أشأ في لاوعيي أن أتقبَّله، فأقصيته تمامًا من ذاكرتي. ولأوَّل مرَّة، أشعر أنَّ منصور قريب منِّي.

– 17 –

لم تعد مدام ألبير أبدًا إلى شقَّتها. توفِّيت في المستشفى. سوف أكذب على نفسي إن قلت إنِّي تألَّمت لوفاتها. لقد عاشت حياة طويلة. تسعون عامًا بأكملها. وفي ظروف ممتازة، فهي امرأة ثريَّة. وكانت سعيدة على الرَّغم من أنَّها اختارت أن تعيش وحيدة. وحتّى الأمراض الخطرة، فهي لم تعان منها على حدّ علمي. بيد أنَّ هذا لا يعني أنَّ موتها لم يؤثِّر فيَّ بتاتًا، فقد كانت جارة جيِّدة. لم تسبِّب لي ولا لبريجيت أيّ مشكلة. نحترمها وتحترمنا. علاقتنا بها كانت ودِّيَّة، على الرَّغم من أنَّه لم يحدث أن دعوناها لبيتنا أو دخلنا بيتها.

أثناء رقادها في المستشفى، عادتها زهرة مرَّتيْن، لكن لم تتمكَّن من التَّحدُّث إليها، فقد كانت في حالة إغماء متواصل. في الزيارة الثانية، تركت في إدارة المستشفى اسمها ورقم هاتفها وعنوانها. لذلك، هاتفوها لإعلامها بالوفاة. وعلى الفور، خابرت زهرة السيِّدة المُقيمة في بروكسل، والتي تربطها بمدام ألبير علاقة قرابة غامضة، لإعلامها بالخبر. كانت مدام ألبير قد أعطتها رقم هاتفها منذ فترة، وأوصتها بأن تتَّصل بها عند وفاتها. كان من الطبيعيّ أن تحزن زهرة على وفاة مدام ألبير، لكن لم أكن أتصوَّر أنَّ حزنها سيبلغ هذا الحدّ. لم أشكّ لحظة واحدة في أنَّ بكاءها عليها صادق. ومع ذلك، كنتُ أتساءل أحيانًا عمَّا إذا كانت تبكي بسبب وفاة مدام ألبير فحسب، أم لأسباب أخرى أيضًا. المُصيبة تكون في بعض الأحيان، فرصة لتذكُّر أحزان قديمة لم نستطع تجاوزها وظلَّت دفينة في نفوسنا. المهمّ أنِّي أعجبت بموقفها هذا وتأثَّرت لبكائها الحارّ وحزنها الحقيقيّ على عجوز لا تربطها بها أيّ قرابة. لمست فيه وفاء وشيئًا من النبل. إلَّا أنَّ ما فاجأني هو أنَّها أبدت رغبة شديدة في حضور جنازتها. كانت مدام ألبير قد تعاقدت منذ فترة، مثلما يفعل أغلب العجائز الذين هم بلا أهل، مع شركة لإدارة شؤون الجنائز، لتؤمِّن لها قبرًا في المقبرة التي اختارتها وتنظِّم

لها جنازة وتشرف على مراسم الدَّفن. هاتفتْ زهرة صديقة مدام ألبير التي كانت تزورها في فترة ما لدعوتها لحضور الجنازة، فأخبرتْها بأنَّها مريضة، فضلًا عن أنَّها لم تَعُدْ قادرة على الحركة بحكم تقدُّمها في السنّ. أمَّا قريبتها التي تُقيم في بروكسل، فقد اعتذرت عن الحضور من دون أن تذكر لها السَّبب. تألَّمت زهرة لذلك. وعندئذ تولَّدت لديها هذه الرَّغبة التي سرعان ما تحوَّلت إلى قرار.

لم تشأ أن تدفن سيِّدتها التي عاشرتها طوال أعوام من دون أن يسير أحد في جنازتها. وبالطبع، لم تطلع أحدًا من التونسيِّين والعرب الآخرين الذين تعرفهم على قرارها، فهى موقنة من أنَّهم سيعترضون على ذلك، بذريعة أنَّ مدام ألبير غير مسلمة. والسَّير في جنازة غير المسلم حرام كما يردِّدون. إنَّها تعرف كلّ هذا. لكنَّ الله غفور رحيم بكلّ عباده، كما قالت لي. لم تسألني عن رأيي. لعلَّها أدركت من صمتي أنِّي لا أعارض ذلك. وعلى أيّ حال، كان واضحًا أنَّها متمسِّكة بقرارها وأنَّها لن تتراجع عنه. بيد أنَّ الأغرب من كلِّ هذا أنَّها طلبت منِّي أن أحضر معها الجنازة! لم أكن أتوقَّع أن تطلب منِّي شيئًا كهذا. رفضتُ على الفور، فعلاقتي بمدام ألبير لم تكن من العمق بحيث يتوجَّب عليَّ حضور جنازتها. يكفي أنِّي حزنت عليها قليلًا. ثمّ إنِّي أجد الجنائز في فرنسا كئيبة جدًّا. وقد ازددت تأكُّدًا من هذا حين حضرت جنازة لعمّ لبريجيت. يوضع الجثمان في صندوق، وينقل في سيَّارة إلى المقبرة، ثمّ يُدفن وهو في الصندوق. وأغلب الناس يرتدون ثيابًا سوداء. لا أحد منهم يتكلَّم. لا تراتيل ولا ابتهالات. لا شيء غير النَّظرات المغلقة، وصمت ثقيل لا يتخلَّله سوى وقع الأقدام على الأرض.

جنائزنا كئيبة أيضًا، لكن على نحوٍ أقلّ بكثير. بل إنَّ بعض الجنائز التي حضرتها وأنا طفل ليست مقترنة في ذهني بالكآبة. عندما توفِّيت أمِّي، بَكَيْتها بالطبع مثلما بكاها الجميع. لكن أذكر أنِّي لم أكن حزينًا أثناء الجنازة. بالعكس، كنت فخورًا بسيري خلف النعش. لقد سمحوا لي فيها بأن أكون مع الرجال، بل وفي الصفّ الأوَّل خلف النعش تمامًا. وإلى حدّ الآن، لا أدري لماذا. الأطفال يسيرون دائمًا في مؤخِّرة الجنازة. وفي بعض الأحيان، يمنعونهم من السَّير فيها أصلًا. ربَّما لأنِّي كنت أكثر تعلُّقًا بأمِّي من أختي وأخي. كان جثمانها ملفوفًا في كفن نظيف ناصع البياض يتلامع تحت أشعَّة الشمس. لم يسبق أن شاهدت بياضًا ناصعًا إلى ذلك الحدّ. كنت أشمّ أيضًا رائحة العطر الذي عطَّروا به الجثمان بعد تغسيله. وكنت أستمتع بما كان يردِّده الرجال بأصوات جميلة مؤثِّرة، على الرَّغم من تداخلها وتنافرها. رحمان يا رحمان، هذا عبدك.. رحمان يا رحمان، هذا عبدك..

إلَّا أنَّ زهرة لم تيأس. ظلَّت تترجَّاني وتتوسَّل إليَّ. أنت رجل.. أنت أستاذ.. أنت مثقَّف وتعرف الأمور.. وأنا امرأة..بسيطة.. أنا خادمة.. ولا أعرف كيف أتصرَّف وماذا أقول لو سألوني عن شيء ما.. لا يجوز أن تُدفن المسكينة من دون أن يحضر أحد جنازتها.. يكفيها أنَّها عاشت طول عمرها وحيدة.. بقيتُ مصرًّا على موقفي. ولم أقبل إلَّا عندما أخبرتني بأنَّ مسيو غونزاليس سيحضر الجنازة. فرحت زهرة كثيرًا بموافقتي، وطلبت منِّي أن يبقى الأمر سرًّا بيننا. وهذا سرّ آخر يجمعنا. وأيّ سرّ!.. ردَّدت في نفسي.

توجَّهنا إلى المقبرة برفقة مسيو غونزاليس في الموعد الذي حدَّدته لنا شركة إدارة الجنائز. وعند وصولنا، تفاجأنا هناك بوجود قريبة مدام ألبير التي تقيم في بروكسل. كانت تقف وحيدة أمام المدخل. هي التي دنت منَّا وقدَّمت نفسها لزهرة. امرأة في الخمسين. أنيقة، وكلّ ما فيها يوحي بأنَّها من طبقة راقية. وفيما يشبه الاعتذار، قالت لزهرة إنَّه لم يكن بمقدورها حين هاتفتها أن تحضر الجنازة، لكن هذا صار ممكنًا فيما بعد.

بعد وقت قصير، وصل الجثمان من المستشفى في عربة سوداء. كان في تابوت من خشب صقيل بنيّ اللَّون. مدام ألبير هي التي اختارت نوعيَّة الخشب وشكل التابوت ولونه. كان الرجال الذين يشرفون على الجنازة في ثياب سوداء. وكانوا في غاية اللُّطف والتَّهذيب. قدَّموا لنا تعازيهم، ثمّ طلبوا منَّا أن نتبع العربة إلى حيث القبر المحفور الذي ينتظر الجثمان. سرنا في ممرّ صامتين. لم تكن تفصلنا عن العربة سوى ثلاثة أو أربعة أمتار. كانت تسير ببطء شديد كيلا تبتعد عنَّا. كنَّا نمشي في صفّ واحد متلاصقين كأنَّنا نستعين ببعضنا البعض على تحمُّل الموقف. زهرة تتوسَّط الصفّ. وكانت أكثرنا تأثُّرًا.

لم أكن أتصوَّر أنَّني سأجد نفسي معها يومًا ما في مقبرة ولحضور جنازة!

فكَّرت أنَّ مدام ألبير محظوظة. هناك أربعة أشخاص يشيّعونها. وهو عدد لا بأس به بالنِّسبة إلى ميّت لا أهل له. من المؤكَّد أنَّها لم تكن تحلم بهذا. ومن المستبعد جدًّا أن تتصوَّر أنِّي سأكون من بين هؤلاء الأشخاص الأربعة. وربَّما حتّى خادمتها زهرة ما كانت لتخطر ببالها. وعلي أيّ حال، لو لم يكن منصور وابنه في تونس، لما تجرَّأت على حضور الجنازة. ولكن، ربَّما لم تكن مدام ألبير تهتمّ بهذا. قد لا يُزعجها بتاتًا أن تذهب وحيدة كما عاشت دائمًا إلى قبرها، وألَّا يسير أحد في جنازتها.

قفز إلى ذهني موضوع جنازتي ونقل جثماني إلى تونس الذي بدأ يشغل ذهني منذ أن اتَّخذت قرارًا بأن أُدفن في قريتي. وللتَّخلُّص من هذا، رحت أتطلَّع في شرود إلى أشجار السَّرو العالية المصطفَّة على جانبي الممرّ، ثمّ تخيَّلت نفسي أروي لبريجيت ما كان يحدث لي آنذاك. طبعًا، لن أفعل هذا في المساء حين تعود من الشغل، فهي تكون متعبة، ولا أثناء تناول العشاء ولا حتّى في الفراش قبل أن نستسلم للنوم. لا يجوز الحديث عن موضوع كئيب كهذا في تلك اللَّحظات. أروي لها الحكاية أثناء فاصل إعلاني عند مشاهدتها للتلفزيون.

هل تعرفين إلى أيِّ مكان ذهبت اليوم؟..ذهبت إلى المقبرة.. وتعرفين لماذا؟.. للسَّير في جنازة مدام ألبير.. نعم.. اليوم سرت في جنازة جارتنا.. وحضرت عمليَّة دفنها أيضًا!.. كلّ العمليَّة.. من البداية إلى النهاية.. أكثر من هذا، تقبَّلت التعازي كما لو أنِّي فرد من عائلتها.. من المستبعد جدًّا أن تصدِّقني. ستظنّ أنِّي أمزح. وستلومني على أنِّي أجعل من وفاة مدام ألبير مادّة للمزاح.

كان الوقت ظهيرة. لا مطر ولا غيوم في السَّماء. لكنَّ الهواء بارد. هالني العدد المرتفع من الناس في المقبرة. أغلبهم زوَّار وسيَّاح. كنت أعرف أنَّ المقابر هنا تزار كما تزار الحدائق العموميَّة أحيانًا وأنَّها تجتذب السُّيَّاح، لكن لم أكن أتصوَّر أنَّ الإقبال عليها كبير إلى هذا الحدّ. كانوا موزَّعين في كلِّ أرجاء المقبرة. وكانوا يتفرَّجون على القبور ويقرأون ما كُتِب على شواهد بعضها. وكانوا يلتقطون صورًا. لم يهتمُّوا بنا عندما مررنا بالقرب منهم. توقَّفوا عن الكلام أو خفضوا أصواتهم. وابتعدوا قليلًا. تجنَّبوا حتّى النظر إلينا. من الواضح أنَّ الجنائز هي آخر شيء يعنيهم في المقبرة. وربَّما تصرَّفوا على هذا النحو احترامًا لنا وتقديرًا للميِّت. ربَّما يعتقدون أنَّ دفن ميِّت أمر عائليّ شخصيّ، بل حميميّ جدًّا ولا يجوز التطفُّل عليه حتّى بالنَّظر وتحويله إلى مشهد للفرجة. وعندما ابتعدنا، عادوا يتفرَّجون على القبور.

شكرتنا قريبة مدام ألبير على حضورنا. قالت إنَّها لم تكن تتصوَّر أنَّ عربًا أجانب سيحضرون جنازة فرنسيَّة لا تربطهم بها أيّ علاقة قرابة. وقبل أن تغادرنا، أثنت على زهرة للخدمات التي قدَّمتها لمدام ألبير، ثمَّ طلبت منها أن تحرس شقَّتها وتواصل تنظيفها في انتظار أن تعود إلى باريس لإتمام إجراءات الوراثة وعرضها على البيع، فقد اختارتها مدام ألبير قبل موتها وريثةً لها.

عند مدخل المقبرة، غادرنا مسيو غونزاليس، فبقيت وحدي مع زهرة. لم يحدث أن التقينا خارج العمارة. إنَّها المرَّة الأولى التي نسير فيها معا جنبًا إلى جنب في شارع في باريس. كانت بعيدة عنِّي. لم يكلِّم أحدُنا الآخر. ولم ينظر أحدُنا إلى الآخر. وبعد قرابة مئتي متر، رحت أقترب منها شيئًا فشيئًا حتّى كاد جسدانا يتلامسان. لم تبتعد. بل خُيِّل إليَّ أنَّها مالت أكثر برأسها صوبي. كانت لا تزال متأثِّرة بالجنازة. بعد تردُّد، اقترحت عليها أن نجلس في مقهى لنستريح قليلًا ونتناول مشروبًا، فوافقت. هي التي اختارت الطاولة التي جلسنا إليها. كانت توجد في أبعد مكان عن المدخل وفي زاوية، بحيث لا أحد من عابري الشارع باستطاعته أن يرانا. إنَّها واعية بأنَّ وجودنا معًا في مقهى ليس أمرًا عاديًّا، وهي تعرف ماذا تفعل. وقد اتَّخذت كامل احتياطاتها. في ذلك المقهى، قمت بما لم أجرؤ عليه أبدًا. أمسكت بيدها ثمّ رحتُ أداعبها. ولم أكتف بذلك، فبعد لحظة مِلتُ صوبها وقبَّلتها على خدِّها قبلة سريعة. أردت أن أخفِّف عنها وأواسيها لكي تخرج من حالة التأثُّر التي كانت فيها.

قمت بذلك من دون أيّ تردُّد وحتّى من دون أن أفكِّر فيما يمكن أن يكون ردّ فعلها.

خفضت رأسها من دون أن تقول شيئًا. وحين تطلَّعَت إليَّ فيما بعد، لم أر في نظراتها ما يدلّ على أنَّها متضايقة ممَّا فعلت. كأنَّ ما حدث لا يعنيها. كأنَّ اليد التي داعبتُها ليست يدها، وكأنَّ الخدّ الذي قبَّلتُه ليس خدِّها. لم أشأ آنذاك أن أبحث عن تفسير لصمتها، فقد كنت منتشيًا بما فعلت. بَيْدَ أنَّ هذا الانتشاء لم يدم طويلًا، فما إن سحبت يدها حتّى اعتراني اضطراب أعقبه إحساس بالخوف.

أدركت عندئذ أنَّني انتقلت بتصرُّفي البريء هذا، ومن دون أن أدري، إلى مرحلة جديدة في علاقتي بها. والأخطر من هذا، أنَّه لم تبدر من زهرة ممانعة أو أيّ شيء من هذا القبيل، ممَّا يعني أنَّ باستطاعتي إن شئت أن أذهب معها يومًا ما إلى أبعد ممَّا فعلت. صحيح أنَّ القبلة هي قبلة مودَّة ومساندة، وأنَّني لا أزال ملتزمًا بقواعد لعبة الإغواء وبالحدود التي رسمتها لنفسي. كنت أيضًا واثقًا من نفسي. ولكن، هل يمكن للمرء أن يظل دائمًا واثقًا من نفسه في عالم الأحاسيس والنزوات والرَّغبات، وخاصَّة في عالم الحبّ؟

– 18 –

امتدَّت الظلال المنداحة على الأرض شرقًا حتّى تجاوزت منتصف الساحة المستديرة التي تحيط بها الدَّكاكين من كلِّ الجهات. بدأت الحركة في القرية تشتدّ بعد هدوء القيلولة وصمتها. خرج التجّار من دكاكينهم وكنسوا مداخلها ورشُّوها بالماء للتَّخفيف من وطأة الحرّ. بعضهم بقي واقفًا أمام الأبواب، وجلس آخرون على الأرض أو أكياس الطحين والسُّكَّر والحمُّص والفول المكوَّمة بالقرب من الأبواب في انتظار الزبائن. فجأة، تعالى هدير محرِّك الشاحنة القادمة من العاصمة وهي تصعد الطريق. أخذ الحمَّالون يتجمَّعون وسط الساحة وهم يتفحَّصون أدواتهم وعرباتهم وحبالهم استعدادًا للعمل. والتحق بهم الأطفال الذين تغيَّبوا عن الدروس واحتلُّوا المكان الذي تتوقَّف قربه الحافلة كيلا يفوتهم أيّ شيء من الحدث. أمَّا الذين كانوا ينتظرون المسافرين، فقد بدت على وجوههم علامات الابتهاج والاطمئنان، وراحوا يحمدون اللَّـه على أنَّ الحافلة وصلت أخيرًا بسلام بعد أن قطعت كلّ المسافة التي تفصل بين القرية والعاصمة.

ولم يكن الأطفال وحدهم الحريصين على مشاهدة وصول حافلة العاصمة. كلّ من في القرية كان يحبّ ذلك. التجَّار؛ لأنَّ قدومها يحدث حركة في السُّوق ويجلب لهم زبائن جددًا. والسكَّان؛ للالتقاء بأقارب أعزَّاء لم يقابلوهم منذ فترة طويلة. والمتسوِّلون والمشرَّدون؛ لأنَّهم يستفيدون من كرم المسافرين القادمين من العاصمة. والفضوليُّون؛ لأنَّ وصولها مع كلّ ما يتبعه من نزول المسافرين والارتماء في أحضان مستقبِليهم وإنزال حقائبهم والأمتعة المكوَّمة على سطح الحافلة يشكِّل مشهدًا مسلِّيًا ومؤثِّرًا في آن واحد.

كنت في انتظار أمِّي التي كانت من بين المسافرين. وكنت متشوِّقًا جدًّا لرؤيتها. منذ فترة طويلة لم ألتقِ بها. كنت وحدي. لا أحد من العائلة قبِل أن يجيء معي لاستقبالها. بَيْد أنَّني تفاجأتُ

بأنَّ أمِّي لم تأتِ. واستحالت هذه المفاجأة إلى صدمة حين رأيت مدام ألبير بين المسافرات. كانت تنظر حولها كأنَّها تبحث عن شخصٍ ما. وحين شاهدتني ابتسمت، وأخذت تدنو منِّي بخطوات واسعة. كانت أصغر بكثير ممَّا عرفتها وفي صحَّة جيِّدة. وكانت ترتدي ثيابًا تقليديَّة مثل الثياب التي ترتديها النساء في القرية، وتعتمر قبَّعة من قشّ عريضة. كنت على يقين من أنَّها توفِّيت وأنِّي سرتُ في جنازتها وحضرت مراسم دفنها. حين صارت على بعد ثلاث خطوات منِّي، بدأت ملامح وجهها تتبدَّل. وفي لحظة، صارت أمِّي. انتابني خوف شديد، وشعرت أنَّ خطرًا ما يداهمني، فأخذت أصرخ طلبًا للنجدة.

عندئذ، شعرت بيد رقيقة دافئة تداعب ظهري. وتناهى إلى سمعي صوت هادئ مطمئن.. لا تخف.. مجرَّد حلم مزعج.. إنَّها بريجيت التي كانت بجواري على الفراش. استدرت، واندفعت صوبها كأنَّني أحتمي بها ممَّا رأيته منذ حين، فضمَّتني إلى صدرها بقوَّة.. لقد تقلَّبتَ فجأةً وأطلقتَ صرخة.. من حسن الحظّ أنِّي لم أنم بعد.. حاول أن تنسى كلّ هذا الآن.. وأن تنام..

خلَّصت بريجيت نفسها منِّي وأدارت لي ظهرها. أمسكت بيدها وضغطت عليها للتَّعبير عن امتناني لها. وفورًا، رحتُ أستعيد الحلم مركِّزًا على كلّ تفاصيله التي لا أزال أذكرها كيلا أنساه في الغد. كنت أعرف أنَّني حين لا أفعل ذلك قبل الاستسلام للنوم، سوف لا يبقى منه في الصباح إلَّا شذرات قليلة متفرِّقة لا رابط بينها. وبسرعة، بدأت الأسئلة تتزاحم في ذهني. ماذا يعني أنَّ أمِّي التي توفِّيت منذ أعوام طويلة كانت من بين ركَّاب الحافلة؟ ثمّ إنَّ أمِّي لم تزر أبدًا العاصمة، بل ولم تسافر أبدًا في حياتها. وباستثناء قريتنا، فهي لا تعرف من هذا العالم إلَّا القرى المجاورة التي كانت تزورها في مناسبات محدَّدة كالأعراس والمآتم وحفلات الختان. وأمِّي ركبت حميرًا وبغالًا وأفراسًا، وحتّى نوقًا. لكنَّها لم تركب أبدًا حافلة أو سيَّارة أو شاحنة.

أذكر أنَّه عندما اشتدّ مرضها، وصارت تبصق دمًا كلَّما سعلت، قرَّر أبي أن يصطحبها إلى حفّوز حيث يوجد مستشفى. ولم تكن حفّوز قريبة. وكانت حالها الصحِّيَّة المتدهورة لا تسمح لها بالذهاب إلى حفّور سيرًا على الأقدام أو ممتطية بغلًا أو حمارًا ـ وهو ما يقوم به العديد من الناس، وذلك لغلاء تذكرة السفر. كان لا بدَّ أن تسافر بالحافلة. وكانت تلك فرصتها الوحيدة لركوبها. كانت سعادتها بذلك تعادل سعادتها بالذهاب إلى المستشفى للعلاج. بَيْد أنَّ أبي تراجع عن قراره قبل السفر

بيوم واحد، فقد أقنعه أحد الشيوخ في القرية الذي كان يعالج أمِّي بالأعشاب بأنّه لا أمل في شفائها، وبأنَّ الأعمار بيد اللّـه على كلِّ حال.

ثمّ ماذا تفعل مدام ألبير في قريتنا؟ من المؤكَّد أنَّها لم تسمع طوال حياتها باسمها أبدًا؟ ما الذي دفع بسيّدة باريسيَّة ثريَّة إلى أن تغادر فرنسا وتركب تلك الحافلة القديمة مع ركَّاب لا تتكلَّم لغتهم؟ مدام ألبير لم تزر تونس أبدًا ولم تطأ قدماها أيّ بلد عربيّ آخر، بالرَّغم من أنَّها تتمنَّى رؤية أهرام مصر وكثبان الرِّمال في صحراء الجزائر. هذا ما قالته لي ذات يوم، حين عرفتْ أنَّني تونسيّ. إلَّا أنَّ ما شدّ انتباهي حقًّا هو هذه العلاقة الغريبة بين أمِّي ومدام ألبير! صحيح أنَّ لي علاقة بكلتَيْهما وأنَّ كلتَيْهما ميِّتة، وأنِّي سرت في جنازة كلِّ واحدة منهما، ولكن هل يبرِّر هذا أن تتبادلا الأدوار وأن تحلّ إحداهما محلّ الأخرى؟ في الحقيقة، ما أزعجني ليس هذا التبادل وإن بدا لي غريبًا، فالأحلام لها منطقها، وإنَّما خوفي من أمِّي. آلمني أنِّي هربت منها وأنا أصرخ طالبًا النجدة. لقد كانت سعيدة برؤيتي. كان من المفروض أن أهرع إليها وأفتح لها ذراعيّ وأستقبلها الاستقبال الذي يليق بها. وفي مكان ما من أعماق نفسي، خشيت أن يكون مجرَّد ظهور أمِّي حيَّة في الحلم إشارة إلى مكروه أو شيء من هذا القبيل قد يصيبني في المستقبل. من الواضح أنَّ هناك علاقة بين هذا الحلم الغريب وبين حضوري جنازة مدام ألبير في ذلك اليوم، وكلّ ما شاهدته في المقبرة وما ساورني من أحاسيس وما جال في ذهني من أفكار خلال هذه الجنازة. تذكَّرت زهرة. من المحتمل جدًّا أن ترى هي أيضًا مدام ألبير هذه اللَّيلة. سيكون حلمها مختلفًا عن حلمي. وربَّما تحلّ فيه مدام ألبير في لحظة ما محلّ أبيها الذي توفِّي قبل أن تهاجر إلى فرنسا. ومن يدري قد ترى فيه زوجها منصور. وقد يضربها لأنَّها حضرت جنازة مدام ألبير ولأنَّها جلست معي في مقهى. وبالرَّغم من أنِّي أعرف أنَّ عالم الأحلام غامض وسرّيّ وملغز، وأنَّه لا جدوى من البحث فيها عن معانٍ واضحة منطقيَّة، تملَّكتني الرغبة في إلقاء نظرة على كتاب «تفسير الأحلام» لابن سيرين. قبل أن أهاجر، لم أكن أعرف عن هذا العالم المبهم سوى بضعة نصوص قصيرة من كتاب «تفسير الأحلام» لفرويد درسناها في حصَّة الفلسفة، في السنة التي كنَّا نستعدّ فيها لامتحان الباكالوريا. وأوَّل من حدَّثني عن ابن سيرين هو أحد التونسيِّين الذين كنت ألتقيهم وانقطعت علاقتي بهم فيما بعد. كان مولعًا بقراءة كتب الأحلام والسِّحر والتَّنجيم وقراءة الطالع وكلّ ما له علاقة بمعرفة الغيب. أذكر أنِّي أعجبت بكتاب ابن سيرين حين قرأته. وما أثار إعجابي ليس تفسيره للأحلام، الذي لم أقتنع به لبساطته، وإنَّما الطريقة التي كان يفعل بها ذلك، إذ وجدتها طريفة ومسلِّيَّة.

حالما تعالى شخير بريجيت، خرجتُ من الغرفة. أغلقتُ بابها بحذر شديد، وتوجَّهت رأسًا إلى المكتبة. تناولت كتاب ابن سيرين، ورحت أقرأ فهرس المحتويات. أصابني الذهول عندما أنهيته من دون أن أجد بابًا في تأويل رؤيا الأمّ. ذهب في ظنِّي أنِّي لم أركِّز بما فيه الكفاية، فأنا لا أزال تحت تأثير الحلم، فأعدت القراءة بإمعان. لكن، لا باب عن رؤيا الأمّ. لا باب أيضًا عن الأب. لا باب عن الأخت والأخ والحفيد والجدّ والجدّة.. لا باب عن كلِّ أفراد العائلة. أحياء كانوا أو موتى! الباب الوحيد في الكتاب الذي يمكنه أن يقدِّم لي إجابة ما عمَّا كان يشغل ذهني هو باب «تأويل رؤيا الموت والأموات والمقابر والأكفان وما يتَّصل به من البكاء والنوح وغير ذلك». لم يكن طويلًا، فقرَّرت أن أقرأه كلَّه قبل العودة إلى غرفة النوم. سررت حينما وجدت في هذا الباب حديثًا عن الأمّ وبعض أفراد العائلة. وتضاعف سروري حين قرأت: «فإن رأى أمَّه قد حييت أتاه الفرج من همّ هو فيه..» لا داعي إذن للقلق أو التطيُّر من ظهور أمِّي في هذا الحلم العجيب. بالعكس، إنَّه فأل خير.

– 19 –

في اليوم التالي، جاءت زهرة لتنظيف بيتي. وعندما شرعت في العمل، دلفت إلى غرفة النوم. كنت متعبًا ومتوتِّرًا. لم أنم سوى بضع ساعات بسبب حلم البارحة. وفي الصباح الباكر، أيقظتني بريجيت حين اضطرَّت إلى إضاءة الغرفة للبحث عن شيءٍ ما في خزانة الملابس. أسدلتُ ستائر النافذة لحجب ضوء الشمس، ثمّ استلقيتُ على الفراش وأغمضت عينيّ.

حين فتحتهما، أدركت أنَّني غفوت. وأنا أزيح ستائر النافذة، خطر ببالي أن أسأل زهرة عمَّا إذا رأت هي أيضًا مدام ألبير في الحلم. بَيْد أنَّني لم أفعل. خشيت أن يذكِّرها سؤالي بالجنازة وبكلِّ ما عشناه أمس في المقبرة. ثمّ إنَّ الحلم بدا لي، بعد تلك الغفوة وفي ضوء الصباح الباهر الذي ملأ كلّ أرجاء الغرفة، بعيدًا جدًّا. كأنِّي لم أره البارحة، وإنَّما منذ عدَّة أشهر. والكثير ممَّا فيه شحب أو تلاشى بتلاشي عالم اللَّيل وحليفه السرِّيّ الظلام.

كانت زهرة منهمكة في مسح الغبار عن رفوف المكتبة. انتبهتُ إلى أنَّها لم تطلب منِّي منذ عدَّة أيَّام أن أساعدها على قراءة سطور أخرى من «عرس الزين»، بعد السَّطرَيْن الأوّلَيْن. لقد أربكها مرض مدام ألبير ودخولها المستشفى ووفاتها ودفنها. وحين تتجاوز محنتها هذه، ستعود بالتأكيد إلى القراءة. إنَّ رغبتها في التَّعلُّم هائلة، وهي فخورة بما أنجزته. ربَّما ستقتنع بأنَّ «عرس الزين» رواية صعبة، كما قلتُ لها. لكنّ هذا لن يحدّ من رغبتها في القراءة. ستطلب منِّي كتابًا آخر أسهل.

نزلتُ إلى الطابق الأرضيّ لمعرفة ما إذا كانت هناك رسائل في صندوق بريديّ. وحين عدت إلى الشقَّة، جلست على الكنبة وفتحت التلفزيون. كانت هناك نشرة أخبار في قناة عربيَّة.

رحت أستمع إليها بلا اكتراث. وحين لاحظت أنَّ زهرة تتطلَّع بين الحين والآخر إلى الشاشة، غيَّرت القناة بحثًا عن برنامج طريف يروق لها، فوقعت على فيلم في قناة أجنبيَّة.

كان هناك أطفال لا تتجاوز أعمارهم الخامسة يتراكضون وهم يصرخون في حقل شاسع، للهرب من خطر يداهمهم. توقَّفت زهرة عن العمل، وأخذت تتابع الفيلم باهتمام واضح. لم يدم المشهد سوى بضع ثوانٍ، وحلّ محلَّه مشهد لرجل وامرأة عاريين تمامًا يقبّلان بعضهما بعضًا بنَهَم. خفضت زهرة رأسها وعادت فورًا إلى عملها. وخوفًا من أن أزيد في إحراجها، أغلقت التلفزيون. وبينما كنت أبحث عن شيء أقوله لها كي نتجاوز حال الارتباك التي أوقعنا فيها ذلك المشهد الفاضح، سألتني:

ـ هل تخاف الموت؟

لم أكن أنتظر بتاتًا أن تطرح عليَّ سؤالًا من هذا النوع. هل أجيبها بأنَّ فكرة أنِّي سأموت مبكِّرًا لازمتني طوال فترتيْ المراهقة والشباب، بالرَّغم من أنِّي لم أكن أعاني من أيِّ مرض خطير؟ هل أقول لها إنَّني منذ أن تجاوزت عتبة الأربعين، لم أعد أخشى الموت، وأنَّني في الأعوام القليلة الماضية ـ وتحديدًا منذ بلوغي الستِّين ـ بدأت أفكِّر فيه من جديد بين الحين والآخر، من دون أن يثير فيّ ذلك أيّ شعور بالخوف؟ لم أشأ أن أخوض في هذا، فقرَّرت أن أجيب بما يجيب به معظم الناس:

ـ نعم..

استدارت صوبي. وراحت تحدِّق في وجهي. كانت نظراتها تشي بأنَّها تنتظر أن أضيف شيئًا آخر لهذه الإجابة المختصرة. ثمَّ قالت:

ـ أنا أخاف كثيرًا..

ـ هذا طبيعيّ.. لا أحد يريد أن يموت..

ـ في الحقيقة، الذي أخاف منه ليس الموت.. هذا قضاء من عند ربِّي سبحانه وتعالى.. كلّ البشر سيموتون.. الذي أخاف منه هو العقاب..

انتبهتُ آنذاك إلى أنَّها أفلحت في جرّي إلى الحديث في هذه المسألة، على الرَّغم من عدم استعدادي للخوض فيها. استغربتُ أنَّها تخشى العقاب، بل أنَّها تفكِّر فيه أصلًا.

ـ امرأة طيِّبة مثلك، لا يجب أن تخاف من العقاب.. وماذا فعلتِ كي يعاقبك اللَّه؟

ـ لا أصلِّي..

الكثير من الناس لا يصلُّون.. أنا أيضًا لا أصلِّي..

ـ ولم أصم رمضان إلَّا حين كبرت..

ـ وأنا أيضًا.. الصغار كانوا لا يصومون.. لم يكن الأمر مثل الآن..

ـ ولا بدَّ أنِّي أذنبت أيضًا..

ـ لا يوجد بشر في هذه الدُّنيا بدون ذنوب..

تساءلتُ عمَّا إذا كانت قد ارتكبت أخطاء فادحة في حياتها. في الواقع لا أعرف الكثير عن ماضيها. لا أدري كيف كانت عندما كانت شابَّة. ولا أعرف شيئًا عن الفترة التي عاشتها في مرسيليا قبل انتقالها إلى باريس وزواجها من منصور. ما أعرفه عنها شيء قليل. صحيح أنَّها امرأة طيِّبة. أغلب الناس متَّفقون على هذا. ولكن ربَّما لم تكن دائمًا هكذا. ربَّما تغيَّرت كثيرًا، وإن كنتُ أستبعد ذلك. الكائن البشريّ عالم غامض، ليس بمقدور أحد أن يسبر أغواره. قلت، لكي أبعث في نفسها شيئًا من الاطمئنان:

ـ ولا تنسي أنَّ اللَّـه غفور رحيم..

لاحظتُ أنَّ شعورًا بالاطمئنان غمرها لسماع هذه العبارة الشائعة. كأنَّ التذكير بها من قِبَل أستاذ تحترمه كثيرًا وتثق به، زادها تأكيدًا وقوَّة. شعرت أنا أيضًا بشيء من الارتياح. كنت أتصوَّر أنَّها ستكفّ عن الحديث في هذا الموضوع، لكنِّي فوجئت بها تسألني:

ـ هل النار حارقة جدًّا؟

ـ أيّ نار؟

ـ نار جهنَّم..

لم أفكِّر أبدًا من قَبل في جهنَّم ولا في الجنَّة. ولا أذكر أنَّ ما يحدث للميِّت بعد وفاته شغل ذهني يومًا ما، حتّى في الفترات التي كنت أفكِّر فيها في الموت. ولكن أعرف مثلما يعرف الجميع أنَّ نار جهنَّم حامية.

ـ نعم..

ـ أكثر من نار الدُّنيا؟

ـ طبعًا..

ـ أكثر بكم؟

تذكَّرت أنَّني قرأت ذات مرَّة في كتاب ما شيئًا عن طبيعة نار جهنَّم الحامية التي تفوق حرارتها حرارة نار الدُّنيا عدَّة أضعاف، فقلت:

ـ لا أدري.. يمكن ألف..

اتَّسعَت عيناها من شدَّة الذهول وردَّدت الرَّقم في استغراب. انتبهتُ إلى أنَّ ما قلته لها عن جهنَّم ليس من شأنه أن يطمئنها، فأضفت:

ـ لا.. ليس ألف.. لقد أخطأت.. أردت أن أقول مائة.. ويمكن أقلّ.. على أيّ حال، سأبحث في الموضوع وأجيبك بدقَّة في المرَّة القادمة..

جلستْ على كرسيٍّ حول الطاولة لتستريح قليلًا. كانت ساقاها منفرجتيْن. وكان فستانها قد انحسر قليلًا، فبان لي شيء من فخذَيْها. لم تنتبه إلى أنِّي نظرت إليهما. وربَّما انتبهت، لكنَّها تظاهرت بالعكس. ذهبتُ إلى المطبخ. أتيتُها بعصير برتقال وبكوب ماء معدنيّ لي. جلست بجوارها إلى الطاولة. العصير أعدَّته بريجيت من برتقال «المالطي» الذي اشتريته من بائع خضار وفواكه عربيّ. أنا وبريجيت نستسيغ هذا النوع من البرتقال التونسيّ، ونحرص على شرائه في فصل الشتاء حيث يكون متوفِّرًا بكثرة في الأسواق. زهرة أيضًا تحبُّه وتفضِّله على كلِّ أنواع البرتقال. شربَتْ معظم العصير على دفعتَيْن. مسحت شفتَيْها بظاهر يدها، ثمّ قالت:

ـ مسكينة مدام ألبير!

ـ عاشت تسعين عامًا.. وفي دلال ورخاء ونعيم.. وتقولين عنها إنَّها مسكينة؟..

ـ لا أتحدَّث عن هذا.. وإنَّما عن شيء آخر..

ـ ما هو؟

ـ ماتت كافرة..

زهرة بالطبع مؤمنة مثل كلّ المهاجرين التونسيّين. ومن الطبيعيّ إذن أن تفكِّر في لحظة ما في هذه المسألة. لكن ما لفت انتباهي وأنا أتطلَّع إلى وجهها، أنَّها منشغلة بها أكثر من اللَّازم على ما يبدو. لزمت الصمت. رفعت الكوب إلى شفتَيْها وسكبت ما تبقَّى من قطرات العصير في فمها. ثمّ تمطَّقت. لأوَّل مرَّة تفعل هذا أمامي. أبهجني أنَّها صارت تتصرَّف بتلقائيَّة تامَّة في حضوري. اقترحت عليها أن آتيها بكوب آخر، فرفضت.

ـ ستدخل جهنَّم..

ـ رحمة اللَّـه واسعة..

ـ أنا نادمة الآن..

ـ نادمة؟.. على ماذا؟

ـ لم أعلِّمها الشهادة.. على الأقلّ تتشهَّد قبل أن تخرج روحها.. ولا تموت كافرة..

ـ لا أظنّ أنَّها كانت ستتشهَّد.. حتّى لو علَّمتها الشهادة..

ـ لماذا؟

ـ لأنَّها ليست مسلمة..

ـ أتألَّم كثيرًا عندما أرى امرأة طيّبة كريمة مثلها.. وكافرة.. لا تستاهل أن تدخل جهنَّم..

فكَّرتُ أن أقول لها إنَّ مدام ألبير لم تكن كافرة، لأنَّ لها دينها وهو المسيحيَّة وربَّما اليهوديَّة، وإنَّ هناك أديانًا عدا الإسلام في هذه الدُّنيا. إلَّا أنَّني لم أفعل. خشيتُ ألَّا تفهم ما أعنيه. وربَّما أصدمها بمثل هذا الكلام. من الصَّعب عليها بحكم ثقافتها المحدودة والوسط الذي نشأت فيه والتربية التي تلقَّتها، أن تقبل هذا. صحيح أنَّها امرأة ذكيَّة، لكن في مثل هذه المسائل الحسَّاسة، لا تختلف كثيرًا عن المهاجرين الآخرين الذين يعتبرون كلّ الذين لا يؤمنون بالإسلام كفَّارًا.

ـ منذ أن توفِّيت أدعو لها بالخير كلّ ليلة قبل أن أنام.. أحيانًا، أفعل هذا في الصباح أيضًا حالما أستيقظ من النوم.. أرجو من اللَّـه أن يستجيب لدُعائي.. ويغفر لها قليلًا..

قامت بغتة ودخلت غرفة النوم لمواصلة عملها. تذكَّرت ما بقي في ذاكرتي من الحلم. من حسن الحظّ أنِّي لم أحدِّثها عنه. لو فعلت، لمنحتها فرصة للحديث من جديد عن وفاة مدام ألبير. أمضت في تنظيف الشقَّة وقتًا أطول بكثير من المعتاد كي تتدارك على الأرجح الوقت الذي أضاعته في الحديث عن مدام ألبير. وعندما أنهت شغلها، قالت لي وهي تستعدّ لمغادرة البيت:

ـ أفكِّر في أن أبدأ الصلاة..

ـ جيِّد..

ـ ألم تفكِّر أبدًا في أن تصلِّي؟

ـ لا..

ـ لماذا؟

ـ سأصلِّي عندما يفتح اللَّه عليَّ..

ـ ولا بدَّ أن أحفظ بعض الآيات من القرآن من أجل الصلاة.. هل تساعدني؟

ـ نعم..

أجبتها من دون أن أفكِّر في المسألة. وعلى أيِّ حال، لم أكن واثقًا من أنَّها جادَّة تمامًا. بدا لي أنَّها قالت هذا تحت تأثير ما دار بيننا من كلام عن جهنَّم والنار.

عندما وصلت إلى الباب، قالت لي:

ـ اطمئن.. لن أتوقَّف عن قراءة «عرس الزين».. أريد أن أعرف ما هي حكاية الزين.. قلبي يقول لي إنَّها حكاية جميلة.. لكنَّ الأولوية الآن للقرآن..

كانت الساعة قد تجاوزت الظهيرة بكثير، حين ألفيتُ نفسي وحيدًا في الشقَّة. لم تكن لديَّ أيّ رغبة في الأكل، ومع ذلك، أعددت سندويتشًا. تناولته بسرعة واقفًا في المطبخ، ثمّ عدت إلى الصالون واستلقيتُ على الكنبة. تذكَّرت مشهد الرجل والمرأة العاريَيْن اللذين كانا يقبِّلان بعضهما بعضًا بنهم في الفيلم، ففتحت التلفزيون. كان هناك حفل مسجَّل لمطرب مشهور. استمعت إليه قليلًا. ثمّ أغلقت التلفزيون.

كنت أمنِّي النَّفس بأن أنام قليلًا، فأنا أحبّ القيلولة. لكن ما إن أغمضت عينيّ، حتّى قفزت إلى ذهني كلّ تساؤلات زهرة عن جهنَّم، وخاصَّة عن طبيعة النار التي توجد فيها. لم يحدث أبدًا أن فكَّرت في العقاب الإلهيّ. بالطبع، قرأت وسمعت الكثير عن القيامة ويوم الحساب، لكنِّي لم أولِ الأمر أبدًا الاهتمام الذي يستحقّه. أعترف أنِّي شعرت، وأنا أستعيد بعضًا من تساؤلات زهرة، بقليل من الخوف ممَّا يمكن أن يحدث لي بعد موتي.

– 20 –

لولا استمارة التَّصريح بالدخل لمصلحة الضرائب، لما وطئت قدماي أبدًا شقَّتها!

كنَّا قد فرغنا للتوّ من تناول العشاء حين سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب. كانت بريجيت مُستلقية كعادتها على الكنبة، تتابع باهتمام الحلقة الجديدة من مسلسلها المفضَّل، بينما كنت أنا منهمكًا في حمل الصحون إلى المطبخ وتنظيف الطاولة. فتحته.

إنَّها زهرة. تسارعت دقَّات قلبي حين دخلت إلى البيت من دون أن تقول لي شيئًا. عبرت الصالون وتوجَّهت رأسًا إلى حيث الكنبة. انحنت على بريجيت وسلَّمت عليها بحرارة، وراحت تسألها عن صحَّتها وأخبارها. كانت آثار المفاجأة واضحة على وجه بريجيت وحركاتها، ومع ذلك، رحَّبت بها. أحسستُ بارتباك شديد حين ألفيتُ نفسي بينهما لأوَّل مرَّة. وبالرَّغم من أنِّي موقن من أنَّ زهرة لن تقول شيئًا لبريجيت عن علاقتنا، انتابني الخوف من هذه الزيارة الغريبة. ولم أطمئنّ إلَّا حين كشفت عن سبب مجيئها في مثل ذلك الوقت. لم يبق سوى بضعة أيَّام لإرسال استمارة التَّصريح بالدخل إلى مصلحة الضرائب. وهي عاجزة عن ملئها، لأنَّ منصور هو الذي يقوم بهذا في العادة. وتطلب من بريجيت بالذات أن تساعدها، لاعتقادها أنَّها خبيرة في هذا المجال بحكم عملها في بنك، ومن دون تردُّد، وافقت بريجيت على مساعدتها. بيد أنَّها لم تشأ أن تنقطع عن متابعة مسلسلها، خاصّة في تلك اللَّحظات، فكلَّفتني بهذه المهمَّة مطمئنة زهرة بأنِّي قادر تمامًا على إنجازها على أكمل وجه، لأنَّ الأمر لا يحتاج إلى خبرة كما تظنّ. إلَّا أنَّ ما فاجأني هو أنَّها طلبت منِّي أن أرافقها إلى شقَّتها، وأن نقوم بذلك على مهل وبهدوء. أعتقد أنَّها خشيت إن فعلنا ذلك في غرفة سامي، وهو ما كنت على وشك اقتراحه، أن تسمع حديثنا حتّى لو أوصدنا الباب، فنخرجها من عالم المسلسل ونفسد عليها متعتها. زهرة تفاجأت هي أيضًا، فلم تقل شيئًا. اكتفت بتحريك رأسها. وهكذا وجدت

نفسي معها على انفراد في شقَّتها. وبمباركة من بريجيت! منذ فترة أرغب في الدخول إلى شقَّتها لأرى في أيِّ مكان تعيش وكيف هو بيتها. وها هي بريجيت تمنحني هذه الفرصة، وفي وقت لم يكن يخطر ببالي إطلاقًا. لا مجال إذن لأيّ إحساس بالذنب أو أيّ شيء من هذا القبيل. ويبدو أنَّ زهرة هي أيضًا ارتاحت لذلك. من المستبعد إذن أن تحسّ بالذَّنب من استقبال رجل في شقَّتها، وهو أمر ما كانت لتجرؤ عليه بالتأكيد، خاصَّة في غياب زوجها وابنها، لو لم تطلب منَّا بريجيت ذلك. وعلى أيِّ حال، لم يكن لديها خيار آخر. كانت آنذاك في حاجة ماسَّة إلى من يساعدها في ملء الاستمارة.

الشقَّة نظيفة، وكلُّ شيء فيها مرتَّب. الأثاث متواضع وقديم، لكنَّه مريح. وأجمل ما فيه زربيّة كبيرة مفروشة في الصالون. استرعت انتباهي لوحة فنِّيَّة تمثِّل صورة امرأة اكتشفت فيما بعد أنَّها صورتها. كانت معلَّقة على الحائط مقابل الكنبة، إلى جوار صورة رُسِمت فيها بخطّ كوفيّ جميل عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم». لم أكن أتصوَّر أن أجد لوحة فنِّيَّة في بيتها. أعترفُ أنِّي شعرت في لحظة خاطفة بما يشبه الحسد، فأنا لا أملك أيّ لوحة. كلُّ ما لديَّ في البيت هي نسخ لبضع لوحات مشهورة. سألتها عنها، فأخبرتني أنَّها اشتغلت قبل عدَّة أعوام في بيت رسَّامة فرنسيَّة من أصل هولنديّ. كانت شديدة الإعجاب بلون بشرتها وبقسمات وجهها الذي تعتبره نموذجًا للوجه البربريّ. رسمت لها عدَّة صور، وأهدتها إحداها حين توقَّفت عن خدمتها. قالت إنَّ منصور يكره هذه اللَّوحة، والصور عمومًا. وقد انتهزت فرصة غيابه الطويل، فعلَّقتها على الحائط في الصالون لتتفرَّج عليها كلّ يوم. هي أيضًا ليست من الذين يحبُّون كثيرًا الصور، لكنَّها تجد ألوان اللَّوحة زاهية. وحين تتأمَّلها، ينتابها في بعض الأحيان شعور لا تدري كيف تصفه، لكنَّه مبهج. وأكثر ما يعجبها فيها هو أنَّها تذكِّرها بأمِّها، بل يُخيَّل إليها أحيانًا أنَّ الوجه الذي في اللَّوحة يشبه وجه أمّها أكثر ممَّا يشبه وجهها هي.

لم يستغرق ملء الاستمارة سوى بضع دقائق. جلست زهرة بعيدًا عنِّي. وأثناء ذلك، لم أحاول أبدًا أن أقترب منها. قرَّرت أن أكون شديد الانضباط، بل كنت قليل الكلام متجهِّمًا لكيلا أنبسط معها، فبريجيت تعرف أنِّي برفقتها، ومن العيب أن أسمح لنفسي بارتكاب أيّ شيء حتّى لو كان بسيطًا أو بريئًا وأنا على بعد خطوات منها، خصوصًا أنَّها وثقت فيَّ. لو لم تكن ثقتها فيَّ تامَّة، لما طلبت منِّي أن أذهب مع زهرة إلى بيتها. وفور الانتهاء من ملء الاستمارة، نهضت لأغادر المكان. كنت أتصوَّر أنَّ زهرة ستبتهج عندما تراني أغادر الشقَّة، إذ لم يعد هناك أيّ مبرِّر للبقاء معها. لكنَّها أصرَّت على أن تأتيني بكوب من الشاي الأخضر بالنعناع مكافأة على الخدمة التي قدَّمتها لها. كانت

تعرف أنِّي أستسيغ كثيرًا شايها الأخضر بالنعناع، فهي تعدُّه بالطريقة التونسيَّة القديمة، وفي إبريق تونسيّ تقليديّ. امتدحت شايها كالعادة، فأنا أعرف أنَّها تحبّ ذلك. ثمّ واصلتُ ترشُّفه في صمت. انفرادي بها في بيتها ليلًا، صار بعد إنجاز مهمَّتي محرجًا. هي أيضًا كانت محرَجة. أعتقد أنَّ كلانا كان يخشى تلك اللَّحظات. لذا، لذنا بالصمت. أصبح كلانا يتجنَّب نظرات الآخر. أسرعت في الترشُّف. وبينما كنت على وشكّ الإتيان على ما تبقَّى في الكوب، سألتني بصوت واطئ كما لو أنَّها تخشى أن يسمعها أحد:

ـ لماذا بستني في المقهى يوم الجنازة؟

ما أثار دهشتي ليس السُّؤال، فقد كنت أنتظر أن تطرحه عليَّ يومًا ما، وإنَّما الطريقة الجريئة الواضحة المباشرة التي فعلت بها ذلك.

ـ لأخفِّف عنك..

الابتسامة الباهتة التي ارتسمت على شفتَيْها وهزَّة الرأس الخفيفة تشيان بأنَّها لم تصدِّق ما قلته لها.

ـ كنتِ حزينة.... فأردت أن أبيّن لك أنِّي إلى جانبك..

سؤالها هذا، في مثل ذلك الظرف الاستثنائيّ، وفي بيتها، والابتسامة التي أعقبته، دمَّرا بسرعة عجيبة كلّ ما كان لديَّ من تماسك وانضباط. أكثر من هذا، اجتاحتني بغتة رغبة قويَّة في تقبيلها من جديد، لكن ليس على خدَّيْها، وإنَّما على شفتَيْها هذه المرَّة. وبسهولة، أقنعت نفسي بأنَّ قبلة واحدة سريعة على شفتَيْها لا تشكِّل أيّ خطر. كنت على يقين من أنَّني قادر بعدها على التَّحكُّم في نفسي. وعلى أيِّ حال، لا مجال للذهاب إلى ما هو أبعد من القبلة، وحتّى إن أردت، فبريجيت على بعد خطوات منِّي. ثمّ يمكنني أن أعوِّل على زهرة. حتّى لو سمحت لي الآن بأن أقبِّلها قبلة واحدة على شفتَيْها، فلن تقبل أن أذهب أبعد من ذلك في مثل ذلك الظرف الاستثنائيّ، وفي بيتها، فضلًا عن أنَّها ملتزمة مثلي بما رسمناه من خطوط لِلُعبتنا.

ـ هل تفعل هذا مع كلِّ النساء؟

ثمَّة مزيج من السُّخريَّة والتَّحدِّي في نبرتها. لم أتعوَّد منها أن تخاطبني هكذا.

ـ أيّ نساء؟

ـ النساء اللَّواتي تشتغل معهنّ في الجامعة.. النساء اللَّواتي تلتقي بهنَّ في المقاهي.. أو في الشوارع.. النساء في فرنسا كثيرات.. وموجودات في كلِّ مكان..

ـ هل تتصوَّرين أنِّي زير نساء؟

ـ لا.. لم أقصد هذا.. لكنَّك رجل.. وأستاذ كبير.. والنساء سهلات في فرنسا..

رحت أتساءل عمَّا إذا كانت اللَّحظة مناسبة للاقتراب منها تمهيدًا للجلوس بجوارها.

ـ ماذا ستقول بريجيت لو علمت أنَّك قبَّلتني؟

لم يرُق لي أن تذكر اسم بريجيت وأن تزجّ بها في هذه المسألة. ومع ذلك، أجبتها بهدوء:

ـ لن تقول شيئًا..

قوَّست حاجبَيْها للتَّعبير عن استغرابها.

ـ في فرنسا، تقبيل امرأة على خدِّها لا يعني شيئًا.. إنِّي أقبِّل كلّ صديقاتها.. وهي تفعل الشيء نفسه مع أصدقائي..

مطَّت شفتَيْها. ثمّ خفضت رأسها وصمتت للحظة طويلة. وبينما كنت أتطلَّع إلى خصلات شعرها التي تلامس خدَّيْها، رفعت رأسها وقالت:

ـ عيب سي عاشور أن تبوس امرأة ليست امرأتك..

كان واضحًا أنَّها تودّ الاسترسال في الحديث عن هذا الموضوع الذي يعني لها الكثير على ما يبدو.

ـ ولماذا؟

ـ عيب.. وحرام أيضًا..

ـ وإذا كانت المرأة مثلك.. ماذا نفعل؟

ـ لا شيء.. تتفرَّج فقط.. بعينَيْك.. لا تلمس..

أصبت بذهول وأنا أراها تتكلَّم بدلع. كأنَّها صارت فجأة امرأة أخرى.. يقول البعض إنّ النساء يتغيَّرن كثيرًا .. في كلِّ امرأة، نساء كثيرات.. وبدافع قويّ، نهضتُ ودنوتُ منها، ثمّ جلست بجوارها. لم تبتعد عنِّي. أمسكت بيدها، فلم تسحبها. وبعد لحظة، فوجئت بها تميل صوبي، ثمّ تسند رأسها على كتفي. كان ينبعث منها خليط من رائحة نعناع ورائحة صابون. وبيدي الأخرى، أخذت أداعب خصلات شعرها التي كنت أنظر إليها قبل حين. أغمضت عينَيْها، وقالت بصوت واطئ متردِّد:

ـ من مدَّة.. لم يُداعبني رجل..

واصلتُ مداعبتها في صمت. خفت أن تغيِّر سلوكها فتسحب يدها وتبعد رأسها عنِّي إن قلت شيئًا ما.

ـ منصور لا يُداعبني..

كان واضحًا أنَّها محرومة من الحنان، وأنَّها تريد أن تنال منه قسطًا ما.

ـ لأوَّل مرَّة يعاملني رجل بحنان ورقَّة..

وبالرَّغم من أنِّي لا أستلطف منصور، لم يخامرني أدنى إحساس بالتفوُّق عليه وزوجته الآن بين يديّ. بالعكس، أشفقت عليه. ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن أسألها:

ـ هل تحبِّين منصور؟.

ـ إنَّه زوجي..

ـ أعرف.. ولكن أنا أسألك عن الحبّ؟

ـ في الحقيقة، لا أدري بالضبط ما هو الحبّ..

وبينما كنت أبحث عن تعريف مختصر للحبّ يمكنني أن أقدِّمه لها، سألتني:

ـ هل تحبّ أنت بريجيت؟

ـ نعم..

ـ وتداعبها كلّ يوم..

ـ لا.. ليس كلّ يوم..

ـ منصور قلبه أبيض.. لكنَّه رجل قاسٍ..

لم أشأ أن أقول شيئًا عن منصور. إنَّه زوجها في النهاية. ومن المحتمل أن أجرحها حين أنتقده أو أبدي أيّ ملاحظة عن مظهره وتصرُّفاته.

ـ لم يداعبني أبدًا كما تداعبني أنت الآن..

تأجَّجت رغبتي إلى الحدّ الذي صرت معه عاجزًا عن السيطرة عليها. احتضنتها بكامل ذراعيّ. لم تتحرَّك. وفي اللَّحظة التي مددت فيها عنقي لأقبِّل شفتَيْها، أفلتت منِّي. كنت أنتظر أن تدفعني أو تغضب فتأمرني بأن أخرج من بيتها فورًا، لكنَّها قالت ضاحكة:

ـ حلُّوف!.. لم أكن أعرف أنَّك حلُّوف إلى هذه الدرجة..

لم أنزعج من كلمة حلُّوف. بالعكس، ابتهجت لها. إنَّها كلمة تدلِّل وتحبِّب في هذا السِّياق. منذ فترة طويلة، لم تقل لي امرأة هذه الكلمة. لم تَبدُ لي زهرة أبدًا مثيرة كما بدت لي في تلك اللَّحظات. وكلَّما تكلَّمت وامتنعت ازدادَت إثارة، فازدادت رغبتي في تقبيلها. انتظرت قليلًا، ثمَّ تقدَّمت منها واحتضنتها بقوَّة، ومددت عنقي باحثًا عن شفتَيْها. دفعتني وأفلتت منِّي من جديد، وهي تقول:

ـ من فضلك سي عاشور.. احترم نفسك.. من فضلك..

كانت بريجيت مستغرقة تمامًا في متابعة المسلسل حين عدتُ إلى بيتي. كنت أنتظر أن تسألني عمَّا إذا كنت قد أنجزت مهمَّتي كما ينبغي. إلَّا أنَّها بالكاد التفتت إليّ عندما عبرت الصالون متوجِّهًا إلى غرفة سامي. شعرت بارتياح لعدم اكتراثها بالأمر، فقد كنت أخشى أن تلاحظ اضطرابًا ما في سلوكي. ولم تكن لديَّ من الجرأة ما يكفي للنَّظر إلى وجهها بعد الذي فعلته في بيت زهرة. تمدَّدتُ على الكنبة. ورحتُ أحدِّقُ بشرودٍ في السقف. حمدت اللَّه على أنَّ زهرة لم تستسلم لي. لو لم تفلت منِّي لقبَّلتها على شفتَيْها. الوضع أصبح خطرًا حقًّا. عليَّ وعليها. دائمًا أتصوَّر أنِّي قوِّيّ. لكن

ها أنا أنهار. ها أنا أغرق. وكلَّ يومٍ، أزداد غرقًا. وما يثير فيَّ الرُّعب أنِّي أكتشف أنَّ لحظة واحدة تكفي كي تتهدَّم كلّ الجدران التي شيَّدتها لأحتمي بها وأتحصَّن داخلها. إلى متى سأظلّ هكذا؟ يجب أن أتَّخذ موقفًا واضحًا وألتزم به. لا بدَّ أن أجد حلًّا كي أوقف هذا الانزلاق الخطير نحو الهاوية. ولكن ما هو؟

– 21 –

عندما اقترحَت عليَّ بريجيت أن نسافر إلى منتجع «لاي كاروز»، في جبال الألب للتزلُّج وقضاء أسبوعَيْن هناك، بعيدًا عن ضجيج باريس وهموم الحياة ومتاعب العمل فيها، وافقتُ من دون تردُّد. هذا هو الحلّ الذي كنت أبحث عنه، قلتُ في نفسي. ليس هناك أفضل من الغياب للنسيان. ولا شيء أحسن من السَّفر لتجديد الرُّوح والجسد معًا. أسبوعان كاملان برفقة زوجتي، وفي مكان بعيد جدًّا عن المدن، وفي أعالي الجبال ووسط الثلوج، سيضعان بالتأكيد حدًّا للانزلاق الخطير نحو الهاوية الذي انسقت إليه منذ أسابيع، والأهمّ من ذلك، سيُعيدان علاقتي بزهرة إلى إيقاعها القديم الطبيعيّ. إيقاع الإغواء البريء.

ركبنا القطار إلى مدينة ليون. أمضينا ليلة في الفندق. وفي الصباح، استأجرنا سيَّارة رباعيَّة الدَّفع وقصدنا منتجع التزلُّج. وبالرَّغم من أنِّي أحبّ القيادة، خصوصًا لهذا النوع من السيَّارات، تركت المقود لبريجيت. إنَّ القيادة في هذه المنطقة الجبليَّة، وفي طرقات ضيِّقة تتراكم فوقها الثلوج التي كلَّما اقتربنا من المنتجع، ازدادت كثافة ليست سهلة. وهي تحتاج إلى مهارة كبيرة لا تمتلكها إلَّا بريجيت. كنت سعيدًا. ليس لوجودي في منتجع للتزلُّج، فأنا لست ـ خلافًا لزوجتي ـ من عشَّاق هذه المنتجعات الباردة، وإن كنت أحبّ رؤية الثلوج، وهي تغطِّي ببياضها الناصع كلَّ شيء وتنشر صمتها العميق على الغابات. كنت سعيدًا لأنِّي هربت من زهرة. ومنذ أن وطئت قدماي هذا المكان الجبليّ، ازداد إحساسي بالبُعد عنها، إذ بدت لي باريس من هناك كما لو أنَّها لا توجد في فرنسا، وإنَّما في بلد آخر.

في العادة، تحدث بيننا كلّ يوم شجارات صغيرة حول أمور تافهة كلَّما سافرنا. وبريجيت تعتبرها الملح الذي يضفي على العطلة مذاقها. لكن هذه المرَّة، أمضينا ثلاثة أيَّام بأكملها في وئام تامّ.

ولا شكَّ أنَّ إحساسي بالسَّعادة ساهم إلى حدّ كبير في إناخة جوّ من التفاهم والودّ بيني وبين بريجيت. لم أناقشها في أيّ شيء تقوله. ولم أبدِ أيّ ملاحظة عن تصرُّفاتها. ولم أعارضها في أيّ أمر تقترحه. قبلتُ حتّى أن أشاهد برفقتها حلقة من مسلسلها المفضَّل الذي ظلَّت تُتابعه باهتمام. وهذا ما سرَّها كثيرًا. في الحقيقة، لم يكن لديَّ خيار آخر، فنحن في غرفة واحدة ولسنا في شقَّة، بها عدَّة غرف، مما يتيح لي إمكانيَّة الانفراد بنفسي. ولم أحاول أن أقرأ قليلًا من الرواية التي جلبتها معي، لأنِّي أعجز عن القراءة إن لم يكن كلَّ ما حولي غارقًا في الصمت. الشيء الوحيد الذي كان باستطاعتي أن أقوم به في مثل تلك الظروف أن أغمض عينيّ وأستسلم للتذكُّر. إنَّها أفضل طريقة لتزجية الوقت حين لا يكون بمقدوري أن أفعل أيّ شيء آخر. لكن خشيت أن يحملني التذكُّر إلى ما حدث لي مع زهرة.

المفارقة أنَّ هذه السَّعادة تسبَّبت لي فيما بعد في خصومة مع بريجيت، ففي اليوم الرابع، وبينما كنت أنظر إليها بإعجاب وهي تتزلَّج ببطء حولي، توقَّفت بغتة وسألتني عن مصدر هذه السَّعادة. أجبتها بما خطر ببالي للتوّ، وهو أنِّي فرح لأنَّنا في عطلة، ولأنَّنا نقضي أغلب اليوم معًا. كنت أعرف أنَّها تحبّ أن تسمع كلامًا من هذا النوع. وفي العادة، تبتهج كثيرًا بذلك، لكن هذه المرَّة حرَّكت رأسها حركة خفيفة ولم تقل شيئًا. لم أعر هذا أيّ اهتمام. عادت إلى التزلُّج. وبين الحين والآخر، تسرع أو تقفز أو تقوم بحركات دائريَّة تظهر مهارتها في التزلُّج. كنت أعلم أنَّها تُتقن ذلك، ويروق لي أن أنظر إليها وهي تنزلق بخفَّة على الثلج من دون أن تسقط. لقد حاولتُ منذ اليوم الأوَّل من وصولنا أن أتعلَّم التزلُّج استجابة لرغبتها الملحَّة. شجَّعتني كثيرًا وأسدت لي العديد من النصائح. بَيْد أنَّني فشلتُ فشلًا ذريعًا في ذلك. حالما أضع قدميّ في الزلَّاجتَيْن أشرع في الترنُّح. وكلَّما أردت أن أتقدَّم، فقدت توازني، فوقعت على الأرض. ثمّ إنِّي لا أنهض إلَّا بصعوبة وبمساعدتها، محوِّلًا نفسي بذلك إلى مشهد للفرجة للمتزلِّجين الذين كانوا يمرُّون بنا.

في اللَّيل، تعقَّدت الأمور. حين اقتربت منِّي وراحت تُداعبني بما يوحي بأنَّها تريدني، لم أستجب لها كما ينبغي. كانت لديَّ أنا أيضًا رغبة. إلَّا أنِّي لم أُظهر من الحماس ما يكفي لإرضاء بريجيت. إنَّها تحبّ أن أكون معها ولها تمامًا حين ترغب فيَّ، خاصَّة في العطل. يبدو أنَّ شهيَّتها تزداد وتتضاعف في هذه الفترات. كأنَّه لا عطلة حقيقيَّة إلَّا عندما نفعل هذا كلّ ليلة. كنت أتفهَّم شهيَّتها هذه، لأنَّ العطلة هي بالنِّسبة إليها وقت للتمتُّع بكلِّ ما هو متاح. وفي الحقيقة، هذا ما يزعجني قليلًا. الرَّغبة يجب أن تبقى تلقائيَّة وصادقة. إنَّها ليست من الأشياء التي يُمكن أن نبرمجها.

في عالم الأحاسيس أنفر من كلِّ ما يملى على النَّفس ويُفرض عليها؛ مثل أن تكون مسرورًا ككلّ أفراد العائلة في الأعياد، بالرَّغم من أنَّني أجد الاحتفال بها في أغلب الأحيان مملًّا وكئيبًا.

أبديت حماسًا أكبر. التصقت بها ورحتُ أقبّلها بنهم آملًا أن يؤجِّج هذا رغبتي. بَيْد أنَّ كلّ ما فعلته لم يكن مجديًا، فقد أدارت لي ظهرها. ثمّ انزلقت مبتعدة عنِّي حتّى بلغت أقصى طرف للسرير كيلا يتلامس جسدانا، وهذا ما تفعله في العادة كي تُعبِّر لي عن عدم رضاها عنِّي في هذا المجال. لم أيأس. اقتربت منها. ثمّ مددتُ يدي إلى ظهرها وأخذت أداعبه. وبحركة عنيفة، أبعدت يدي عنها. عندئذ، قرَّرت أن أضع حدًّا لكلّ محاولاتي. خيَّم الصمت. مضى وقت طويل عبرت ذهني خلاله أفكار كثيرة. وفي اللَّحظة التي بدا لي فيها أنَّها لن تضيف شيئًا أثناء ما تبقَّى من تلك السهرة، وأنَّ من الأفضل أن أستسلم للنوم، سألَتني:

ـ هل تُخفي عنِّي شيئًا ما؟

ـ أخفي شيئًا؟.. لا..

ـ متأكِّد؟

ـ نعم.. ولكن.. لماذا هذا السُّؤال؟

ـ أحسّ أنَّك لست كعادتك..

ـ ماذا تقصدين بالضبط؟

ـ لست طبيعيًّا.. أنت مهذَّب ولطيف وفرح أكثر من اللَّازم.. ولا أظنّ أنَّ السَّبب هو العطلة وأنَّنا معًا كما، قلت لي.. أحسّ أنَّك مضطرب من الداخل..

كنتُ قد سمعت وقرأت أشياء كثيرة عن قوَّة الحدس لدى النساء، وقد سبق أن لاحظت شيئًا من هذا لدى بريجيت في مناسبات عديدة، لكن لم أكن أتصوَّر أنَّ حدسها قويّ إلى هذا الحدّ، وأنَّ لها مقياسًا خفيًّا قادرًا على التقاط أدقّ ما يجول في خاطري. ثمّ هل أنا سهل الاختراق وشفَّاف إلى هذه الدرجة؟ لعلَّني أنتمي إلى صنف الرجال الذين يفضحون أنفسهم من حيث لا يعلمون. وربَّما لاحظت

بريجيت هذا الخلل في طبيعتي منذ زمن طويل. بَيْد أنَّها لم تشأ أن تصارحني به حبًّا لي أو إشفاقًا عليَّ، أو بكلّ بساطة، لأنَّ مصلحتها تقتضي ذلك.

ـ هل اشتقت إلى زهرة؟

رجَّني ما يشبه الزلزال من الداخل. لا شكَّ أنَّ آثاره انعكست على وجهي. ومن حسن الحظّ أنَّه لم يكن بمقدورها أن تراها وهي في تلك الوضعيَّة التي تدير لي فيها ظهرها. ومع ذلك، أفلحتُ في أن أبقى متماسكًا إلى حدٍّ ما. أجبتها متظاهرًا بعدم الاكتراث:

ـ نعم.. كثيرًا..

لا أدري من أين أتتني كلّ هذه الجرأة كي أقدِّم لها إجابة استفزازيَّة من هذا النوع، كأنَّ شخصًا آخر حلَّ بغتة في جسمي وصار يتكلَّم بدلًا منِّي. أضفت مستفيدًا من تلك الجرأة:

ـ مسكينة.. إنَّها وحيدة الآن في باريس.. زوجها وابنها في تونس.. ومدام ألبير توفِّيت.. ونحن في محطة للتزلُّج في جبال الألب..

وعلى الفور، أطلقتُ ضحكة عالية كي تفهم أنِّي أمزح. لم يرق لها كلامي ولا ضحكي. استدارت إليَّ وتفرَّست في وجهي، وقالت بهدوء غريب:

ـ اسمع.. إذا لم تَعُد تحبُّني، فقل لي هذا بصراحة.. لا أحبّ النفاق.. أمقت الكذب.. لا أتحمَّل إطلاقًا أن أعيش مع رجل لا يحبُّني..

ـ ما هذا؟.. طبعًا أحبُّك..

راعَني كيف انتقلنا في وقت قصير من مناخ وئام وودّ إلى مناخ نفور وشكّ، بل وصرنا نتحدَّث عن الحبّ الذي يُشكِّل قاعدة صلبة لزواجنا ولكلِّ ما أنجزناه معًا.

ـ لستَ مضطرًّا إلى أن تبقى معي إن لم تَعُد تحبُّني..

بدا لي آنذاك أنَّها انتقلت إلى مرحلة أخرى وأنَّها تتحدَّاني حقًّا.. ودفعة واحدة، غزت ذهني عدَّة أسئلة. ماذا لو كانت تقول لي هذا لتهدِّدني؟.. ماذا لو كان حبّها لي قد تضاءل كثيرًا خلافًا لما يبدو في الظاهر؟.. بل ماذا لو تعرَّفَت على رجل آخر وتريد أن تهجرني؟..

ـ لم تَعُدْ كما كنت..

ـ غير صحيح..

ـ عقلك في مكان آخر.. منذ أيَّام..

ـ منذ متى بالضبط؟

ـ منذ أن عدت من بيت زهرة..

شعرتُ بقليل من الاطمئنان. كنت أتصوَّر أنَّ الأمر أخطر من هذا بكثير، وأنَّ ما دفعها إلى مثل هذا الكلام ملاحظات كثيرة عن أقوالي وتصرُّفاتي تراكمت لديها منذ فترة طويلة. المسألة تتعلَّق إذن بواقعة بسيطة حدثت منذ بضعة أيَّام. وإن كنت قد تغيَّرت بعد تلك الزيارة كما تقول، فهي مسؤولة إلى حدٍّ ما عن ذلك، فذهابي إلى بيت زهرة كان بطلب منها. وقد وافقتُ كيلا أحرمها من مشاهدة مسلسلها المفضَّل. طبعًا، كنت مُدركًا تمامًا أنَّ سماحها لي بذلك لا يبرِّر إطلاقًا ما فعلته بزهرة. لكن يمكنه أن يشكِّل عنصرًا مهمًّا للدِّفاع عن نفسي، إن ساءت الأمور. قرَّرتُ أن أصمت. في اللَّيل، يميل المرء إلى المبالغة وتضخيم الأمور. ثمَّة أشياء كثيرة تفلح في التسلُّل إلى أذهاننا بعد أن يلفُّنا الظلام. ومع ضوء الصباح، وبعد عدَّة ساعات من النوم، تبدو أقلّ أهمِّيَّة بكثير ممَّا كنَّا نظنّ. استيقظت قبلها. دنوتُ منها قدر المستطاع ورحتُ أراقب وجهها. بدت لي أكبر من عمرها وأقلّ جمالًا. ومع هذا، شعرتُ أنَّ حبِّي لها لا يزال قويًّا. لم يتغيَّر مزاجها في الصباح. أكثر من هذا، رفضت أن تتناول برفقتي الفطور، وهو أمر يحدث لنا للمرَّة الأولى منذ أن صرنا نُقيم معًا. دام غضبها يومًا كاملًا حافظتُ فيه على هدوئي التامّ. وفي اليوم التالي، حالما أفاقت من النوم، أمسكتْ بيدي ووضعتْها على بطنها الدافئ. لم تَعُد إلى الموضوع طوال بقيَّة أيَّام العطلة. ومنذ ذلك الوقت، لم تحدِّثني أبدًا عن زهرة.

– 22 –

عدت إلى باريس وأنا عازم على أن أبتعد قدر الإمكان عن زهرة. قرَّرت أيضًا أن أخفِّف كثيرًا من لعبة الإغواء، آملًا أن أتمكَّن في يوم ما من أن أضع حدًّا لها، إذ بتُّ موقنًا أنَّ من الصعب جدًّا أن أوقف انزلاقي إلى الهاوية، إن بقيت سجين هذه اللُّعبة الخطرة. لقد تبيَّن لي الآن أنَّه كلَّما توغَّلت فيها ازددت إدمانًا عليها. وما شجَّعني على اتِّخاذ هذا القرار، أنِّي استعدتُّ الكثير من ثقتي بنفسي، بعد أن أفلحتُ طوال الأسبوعَيْن اللَّذين أمضَيْتهما في العطلة في أن أنساها وأنسى كلّ ما حدث لي معها. كما أنَّ علاقتي ببريجيت استعادت وهجها، بل إنَّ حبِّي لها أضحى أعمق، بعد نجاحنا في تجاوز الشجار الذي وقع في بداية أيَّام العطلة. ازددتُ إعجابًا بقوَّة شخصيَّتها. صحيح أنَّها غضبت عليَّ غضبًا شديدًا، فقالت لي كلامًا لم يسبق أن قالته لي، لكنَّها عرفت في النهاية كيف تنهي الأزمة. قدَّرت موقفها ورأيت فيه نُبلًا كبيرًا.

أوَّل لقاء لي بزهرة بعد الانتهاء من العطلة، حدث بالصدفة في مدخل العمارة صباح اليوم التالي لعودتنا إلى باريس.

كنت خارج العمارة. وحالما دفعت بابها للدخول، رأيتها. كانت واقفة أمام صناديق البريد. في بداية الأمر، لم تلاحظ وجودي، على الرَّغم من أنَّ باب العمارة الخشبيّ الثقيل أحدث صريرًا وهو ينغلق خلفي. كانت مستغرقة تمامًا في قراءة رسالة استلمتها في ذلك الصباح. حين رفعت رأسها وشاهدتني، ابتسمت ابتسامة باهتة. سلَّمتُ عليها بحرارة كعادتي، فردَّت ببرود. سألتني عمَّا إذا كنت في حال جيِّدة. بَيْد أنَّها لم تسألني عمَّا إذا كنَّا قضينا عطلة رائقة وتمتَّعنا بها ونلنا ما يكفي من الراحة، وهو من أهمّ الأسئلة التي يطرحها الناس هنا على العائدين من العطل. دسّت الرِّسالة في جيبها وأغلقت صندوقها. وما إن أجبتها حتّى رفعت يدها مودِّعة. ثمّ انصرفت. وبالرَّغم من أنِّي لم

ألاحظ أيّ علامة توتُّر أو ضيق على وجهها، فقد عزوت تصرُّفها هذا إلى شيء ما في الرِّسالة؛ خبر سيِّئ من تونس، أو تنبيه من مصلحة الضرائب، أو استدعاء من أحد صناديق الرعاية الاجتماعيَّة، أو لوم شديد أو تهديد من زوجها منصور بشأن تقصير ما، أو استدعاء من أحد المستشفيات التي يعالج فيها ابنها مجانًا بسبب توقُّفه عن العلاج، وهو أمر لم أنتبه إليه إلَّا في تلك اللَّحظة. وحين عدت إلى شقَّتي، عنّ لي سؤال. ماذا لو كان السَّبب يخصّ علاقتها بي؟ لعلَّها هي أيضًا انتهزت فرصة افتراقنا وابتعادنا عن بعضنا بعضا لمدَّة أسبوعَيْن كاملَيْن، فراجعت نفسها. ربَّما استعادت بهدوء كلّ ما حدث بيننا في الأشهر الأخيرة، فانتهت إلى ما توصَّلت إليه. البعد يتيح لنا إمكانيَّة أن نرى المسائل من زاويا مختلفة، ممَّا يُساعدنا على تغيير أفكارنا واتِّخاذ مواقف جديدة. ولم أتضايق من فتورها هذا. بل يمكنني أن أقول إنِّي فرحتُ به قليلًا. إنَّه هديّة ثمينة منها لم تكن في الحسبان. لقد كنت أخشى أن تتألَّم أو تشعر بأنِّي صرتُ أعاملها بتعال، أو أنَّها لم تَعُد تعني لي شيئًا كامرأة حين تكتشف قراري بالابتعاد عنها. وسيولِّد هذا في نفسي بالتأكيد إحساسًا حادًّا بالذَّنب. لكن ها هي تسهِّل عليَّ الأمر. الآن، صارت لديَّ ذريعة قويَّة لتبرير قراري. ستة أيَّام كاملة تفصلنا عن اليوم الذي ستأتي فيه كالعادة لتنظيف البيت. إنَّها مدَّة زمنيَّة طويلة نسبيًّا. وهي كافية للاستعداد نفسيًّا للالتقاء بها في مكان مغلق ولساعتَيْن كاملتَيْن من دون أن أنهار فأتراجع عن قراري. وطبعًا، سأحاول قدر الإمكان تجنُّبها خلال هذه الأيَّام، فأنا أعرف أوقات خروجها والأمكنة التي تتردَّد عليها. وحتّى إن التقيتها بالصدفة ـ وهذا وارد ـ فسأعاملها بشيء من البرود.

ثمَّة شيء آخر لفت انتباهي، وهو أنَّ زهرة لم تأت إلى شقَّة مدام ألبير طوال الأيَّام الثلاثة التي أعقبت عودتي إلى باريس. كنتُ شبه واثق من ذلك. لقد أمضيت معظم الوقت خلال هذه الأيَّام في بيتي، وهذا ما أفعله عندما أعود متعبًا من السفر ولا يكون لديَّ شغل في الجامعة. وكنت كلَّما سمعت ضجَّة في الممرّ، ركضت إلى الباب وتطلَّعت إلى الخارج من ثقبه، آملًا أن أراها لأتلصَّص عليها. بدا لي هذا غريبًا، فقد صارت حريصة على المجيء إلى شقَّة مدام ألبير كلَّ يوم لتفقُّدها منذ أن كلَّفتها قريبة مدام ألبير بحراستها. تأتي عادة في بداية الصباح، وتقوم بجولة سريعة في أرجائها لتتأكَّد من أنَّ كلَّ شيء على ما يرام. ولم أجد تفسيرًا لذلك إلَّا حين أخبرني السيِّد غونزاليس أثناء لقائي به بالصُّدفة في مدخل العمارة أنَّ شقَّة مدام ألبير قد بيعت أثناء غيابي.

كنت مزهوًّا بنفسي طوال الأيَّام التالية، فقد اكتشفتُ أنِّي صلب بما فيه الكفاية، وأنِّي قادر تمامًا على التَّحكُّم في مشاعري، ممَّا مكَّنني من تجنُّب زهرة إلى حدٍّ بعيد. لكن، قبل يومَيْن فقط من

موعدنا الأسبوعيّ، حدثت لي معها واقعة غريبة. كنت وحيدًا في البيت. الصباح مشمس رائع. بعد أن فرغت من تناول فطوري، وضعت كرسيًّا بالقرب من النافذة. جلست عليه وأغمضت عينيّ للاستمتاع قدر المستطاع بدفء الشمس، مثلما أفعل كلَّما كان الطقس جميلًا. وبغتة، سمعت طرقًا خفيفًا على باب شقَّتي. تجاهلتُه في بداية الأمر. ظننتُ أنَّ الطارق واحد من هؤلاء العمَّال الذين يدورون على البيوت بحثًا عن عمل، أو من الباعة الجوَّالين، أو زائر لأحد الجيران اختلطت عليه الأبواب المتشابهة. إلَّا أنَّ الطرق لم ينقطع، بل صار أقوى. عندئذ، نزعتُ شبشبي وتقدَّمتُ من الباب ببطء على أطراف أصابعي كيلا أُحدِث أيّ ضجيج، فينتبه الطارق إلى أنِّي في البيت.

نظرت من خلال الثقب. تفاجأت بأنَّها زهرة.

اعتراني الارتباك، فتراجعت بضع خطوات إلى الخلف. ظللتُ للحظة منتصبًا وسط الصالون لا أدري ماذا أفعل. ثمَّ دنوتُ من الباب ونظرتُ إلى الخارج. كانت لا تزال واقفة. بغتة، مدَّت عنقها. وبعد أن حدَّقَت في الثقب أخذَت تطرق الباب من جديد، كما لو أنَّها متأكِّدة من أنَّني في البيت. بقيت مسمَّرًا في مكاني. سمعتها تقول بصوت منخفض شيئًا ما لم أتبيَّنه، ثمّ تناهى إليَّ وقع قدمَيْها وهي تغادر المكان.

كنتُ معجبًا بنفسي لأنِّي تصرَّفت كما كان ينبغي أن أتصرَّف. لأوَّل مرَّة، تطرق زهرة بابي ولا أفتح لها. عدتُ إلى مكاني. وحالما أغمضت عينيّ لمواصلة الاستمتاع بدفء الشمس، بدأت أتساءل عمَّا إذا كنت قد بالغت بتصرُّفي هذا في تجنُّبها. إنَّ رؤيتها أو التَّحدُّث إليها لبضع دقائق لا يعني أنِّي ضعيف أو أنِّي استسلمت لأحاسيسي. ثمَّ إنَّ زهرة جارتي وخادمتي. وهي تونسيَّة مثلي. وعلاقتي بها لا تزال ودِّيَّة على الرَّغم من الفتور الذي اعتراها في الفترة الأخيرة. وحتّى إن انقطعت يومًا لسبب ما، وهو ما أستبعده، فسأحرص على أن أظلّ مهذَّبًا معها وعلى أن أحترمها. وعلى أيِّ حال، ستأتي بعد يومَيْن إلى البيت لتنظيفه. لماذا إذن لم أفتح لها؟

شعرت بالندم. وشيئًا فشيئًا، أخذتُ ألوم نفسي. فكَّرت في الصعود إلى شقَّتها فورًا لتدارك خطئي. هناك أعذار كثيرة يُمكن تقديمها لتبرير عدم فتحي الباب. كنتُ أتصوَّر أنَّ الطارق هو من موزِّعي الإعلانات، أو من الباعة الجوَّالين، أو عمَّال الرصاصة، أو منظِّفي مداخن المدافئ الذين يدورون على البيوت، وخاصَّة في الصباح، بحثًا عن شغل، أو كنتُ نائمًا، أو كنتُ في المطبخ، أو كنتُ مستغرقًا تمامًا في تحضير الدروس أو في مشاهدة نشرة الأخبار في التلفزيون، فلم أسمع

الطرق في البداية. وحين فتحت الباب، لم أجد أحدًا. وفيما بعد، فكَّرت في الأمر، وقلت في نفسي ربَّما زهرة هي الطارق. ولهذا أتيت. لا يهمّ إن لم تصدِّقني. المهمّ أن أبيِّن لها أنَّني لم أمتنع عن فتح الباب عمدًا، وخصوصًا أن أقدِّم لها الخدمة التي تريدها منِّي، لأنِّي أعتقد أنَّها طرقت بابي لا لأنَّها اشتاقت إليَّ فأرادت أن تراني، وإنَّما لأنَّها تحتاجني في أمر قد يكون عاجلًا. وفي هذه الحالة، لا يجوز أن أسلك كما لو أنَّ شيئًا لم يكن. صحيح أنِّي صمَّمت على تحاشيها قدر الإمكان، ولست نادمًا على ذلك، لكنّ هذا لا يعني أن أرفض مساعدتها إن كانت في حاجة إليَّ. إلَّا أنَّني لم أتحرَّك. بقيتُ جالسًا على الكرسي. أعتقد أنَّ الكبرياء منعتني من الصعود إلى شقَّتها. هذه الحادثة التي لم أقرأ لها أيّ حساب، أوقعتني في حالة من الاضطراب. ومن حسن الحظّ أنَّه كان لديَّ في ظهر ذلك اليوم دروس في الجامعة. غادرت البيت فورًا. أمضيت كلّ ما تبقَّى من النهار في التدريس. وقد ساعدني هذا على نسيان ما حدث لي مع زهرة. ولكن في اللَّيل، حالما أسندت رأسي إلى المخدّة للنوم، تذكَّرت كلَّ شيء. وعدتُ ألوم نفسي على ما فعلت. وكان اللَّوم أشدّ إيلامًا هذه المرَّة.

– 23 –

لم يعد يفصلني عن موعدنا الأسبوعيّ سوى يوم واحد. ومع ذلك، لم أكن قادرًا على أن أنتظر. لو كنت من الذين يؤمنون بالسِّحر، لقلت إنَّها سحرتني بعد أن رفضت أن أفتح لها بابي. أمس، كنت أتجنَّبها. واليوم منذ أن استيقظت، صرتُ متلهِّفًا لرؤيتها! هكذا، انتقلت في وقت وجيز من النقيض إلى النقيض. للحبّ منطقه العجيب. وهذه النَّفس البشريَّة عتمة وظلمات.

وعاء ضخم للأهواء والتقلُّبات.

من المرجَّح أنَّها في بيتها الآن. لا بدَّ أن أراها. وحالما غادرت بريجيت الشقَّة متوجِّهة إلى مقرّ عملها، خرجت. ثمَّ صعدت كالمحموم إلى الطابق الخامس. لم آخذ المصعد كيلا ألتقي أحدًا من الجيران. تسلَّقت الدرج بسرعة مدفوعًا بقوَّة عجيبة. وعندما صرت أمام الشقَّة، تبيَّنت لي خطورة ما أفعل واعتراني اضطراب شديد. إلَّا أنَّني حسمت الأمر على الفور. تقدَّمت من الباب وطرقته عدَّة مرَّات. خشيت إن بقيت واقفًا متردِّدًا هناك أن أغيِّر رأيي، أو أن يخرج مسيو غونزاليس ويراني. حالما فتحَته اندفعتُ إلى الداخل من دون أن أقول شيئًا. نسيتُ حتّى أن أصبِّحها بالخير. توجَّهتُ إلى الصالون، ثمَّ جلستُ على الكنبة، ورحت أنظر في شرود إلى اللَّوحة المعلَّقة على الجدار. لم تحاول أن تمنعني من الدخول. وعلى أيّ حال، لم أترك لها أيّ فرصة للقيام بذلك. ظلَّت صامتة تتابع حركاتي بعينَيْن متَّسعتَيْن من الدَّهشة. لقد فوجئت تمامًا بما فعلت، وخصوصًا أنَّ كلّ ذلك حدث بسرعة.

ولم أُدرك أنَّها خرجت من الحمَّام منذ وقت وجيز إلَّا حين حوَّلت بصري عن اللَّوحة. كانت ترتدي فستانًا خفيفًا فضفاضًا مفتوحًا عند الصدر وبكمَّيْن قصيرَيْن واسعَيْن. وتُمسك بمنشفة كبيرة.

قدماها حافيتان، وشعرها محلول منسدل على كتفَيْها. انتبهتُ إلى أنَّني أتيتُ باكرًا، واستغربتُ كيف أنَّني لم أفكِّر في حالة الحميميَّة التي يُمكن أن تكون عليها في هذا الوقت الحرج الحسّاس الذي يعقب الاستيقاظ عندما صعدت إلى شقَّتها. بدَت لي وهي في تلك الحال جميلة ومثيرة، وخُيِّل إليَّ أيضًا أنَّها سهلة المنال. لمَّت شعرها وعقصته. وغطَّت أكثر ما يُمكن من صدرها. ثمّ جلست على بعد أمتار منِّي، ضامَّة ساقَيْها وكاتفة ذراعَيْها. وراحت تنظر إليَّ كي تحثَّني على ذكر السَّبب الذي جعلني أزورها في مثل ذلك الصباح الباكر، وخاصَّة أن أدلف إلى بيتها بمثل تلك الطريقة الغريبة. بَيْد أنَّني لم أنبس بكلمة. حدَّقتُ في وجهها قليلًا، ثمّ نهضت. دنَوْت منها وأمسكتُ بذراعها. لم تكن لديَّ آنذاك أيّ نيَّة في فعل شيء. مجرَّد لمس ذراعها. سحبَتها على الفور وقامت وخرجت من الصالون، ثمّ دخلت إحدى الغرف وأوصدت الباب خلفها بقوَّة. بعد لحظات، عادت وقد بدَّلت ثيابها. جلست بعيدًا عنِّي. ثمّ سألَتني:

ـ لماذا تحبُّني؟

كنت أنتظر أن تطرح عليَّ هذا السُّؤال يومًا ما، لأنِّي كنتُ موقنًا من أنَّها اكتشفت منذ فترة أنِّي أحبّها. من الصَّعب جدًّا أن تخفي شيئًا كهذا عن امرأة.

ـ أعرف أنَّك تحبُّني..

ابتسمَت ابتسامة خفيفة جعلتني أستنتج أنَّها لم تكن متضايقة إلى الحدّ الذي كنت أتصوَّره، ممَّا أشاع في نفسي قليلًا من السرور.

ـ هل تذكر سؤالي عندما حدَّثتني لأوَّل مرَّة عن «عرس الزين»؟

ـ نعم..

ـ سألتكَ ما الذي جعل الزين يحبّ البنت.. كنت أريد أن أعرف ما هي الأشياء لدى المرأة التي تجعل الرجل يحبُّها..

تساءلتُ عمَّا إذا كان مجديًا لي أن أبدي لها استعدادي لمساعدتها على قراءة بضعة سطور أخرى من الرواية. منذ فترة لم نفعل هذا. إن قبلَت ستجلسُ بجواري، وربَّما تُغيِّر سلوكها وتلين

قليلًا. وقد تسمح لي فيما بعد بلمسها، وربَّما بمداعبتها. وعلي أيّ حالٍ، سأستغلّ سلطتي عليها كمعلِّم للوصول إلى ذلك. عادت تسألني بفضول واضح:

ـ ما الذي أعجبك فيّ؟

لم أجد ما أجيب به. لم أفكِّر أبدًا فيما دفعني إلى أن أحبّها. الحبّ لا يُفسَّر، وخاصَّة إذا كان المحبوب شخصًا لا تربطنا به علاقة عميقة. لا أحد يعرف كيف يأتي ولا كيف يذهب.

ـ الرجال!.. عجيب أمرهم.. يصبحون مثل الأطفال حين يتعلَّق الأمر بالنِّساء..

ـ اللَّه سبحانه وتعالى خلقنا هكذا..

حرَّكَت رأسها بما يوحي بأنَّها لم تقتنع بما قلت، بل وأنَّها تستهزئ به قليلًا.

ـ هيَّا.. قل لي.. ما الذي يعجبك فيَّ؟ ما الذي يُعجبك في خادمة وأنت أستاذ كبير ومتزوّج من سيِّدة فرنسيَّة تعمل في بنك؟..

ـ لا يمكن أن نفسِّر الحبّ..

ضيَّقت عينَيْها وهي تثبِّت عليَّ بصرها. وبعد لحظة، قالت وهي تنهض:

ـ بريجيت امرأة رائعة.. أنصحُك بأن تظلّ مخلصًا لزوجتك.. الركض وراء النساء لا يفيدك في شيء.. يا أستاذ..

آلمَني أن أجد نفسي في وضعيَّة من يحتاج إلى نصائح في هذا المجال، وخاصَّة أن تقدِّم لي هذه النصائح خادمة تشتغل لديّ. استغربتُ أيضًا جرأتها. لم أكن أتصوَّر أنَّها قوِّيَّة إلى هذا الحدّ، وأنَّ بمقدورها أن تقول لي كلامًا كهذا. وتضايقت كثيرًا من حديثها عن بريجيت في مثل ذلك الظرف. بدا لي أنَّ مجرَّد ذكر اسمها تدخُّلٌ سافرٌ فيما لا يعنيها، وزجٌّ بنفسها في حياتنا الزوجيَّة، ووقاحة، بل وقلَّة أدب لم أعهدها لديها. هل أعرف حقًّا زهرة؟ تساءلتُ في سرِّي. ماذا لو كنت مخطئًا في الكثير ممَّا كوَّنته عنها من آراء وانطباعات؟ التزمتُ الصمت. وما عساي أن أقول بعد سماع هذه النصائح؟ بعد لحظات، تبيَّن لي شيئًا فشيئًا أنِّي كنت حسَّاسًا أكثر من اللَّازم، وأنِّي بالغت في تأويل كلامها. وما حدث فيما بعد أكَّد لي هذا، فقد سألَتني وهي تقوم عمَّا إذا كنت قد انزعجت من كلامها. أجبتها

بالنفي. ابتسمَت. ثمّ دنت منِّي ولامسَت ذراعي بسبَّابتها ملامسة خفيفة، كما لو أنَّها تعتذر عمَّا بَدَرَ منها. توجَّهَت إلى النافذة. انحنَت على إفريزها وراحت تنظر إلى الخارج. وبينما كنتُ أحدِّق في مؤخِّرتها التي بدت لي أكثر امتلاء وتكوُّرًا، استدارت ونظرت إليَّ على نحوٍ يوحي بأنَّها انتبهت إلى ما كنتُ أفعل، وقالت:

ـ منصور أخبرني أنَّه أكمل عمله.. وأنَّه سيعود قريبًا..

ـ متى؟

ـ بعد خمسة أيَّام..

عادت تنظر إلى الخارج، وعدتُ أنظر إلى مؤخِّرتها. خُيِّل إليَّ أنَّها استدارت عمدًا كي أتمتَّع بالنَّظر إليها. وبينما كنت أبحث عن عنوان لوحة سلفادور دالي التي تمثِّل امرأة أمام النافذة، أضافت:

ـ الآن، وقد اكتمل البيت.. يريد أن نعود إلى تونس نهائيًّا..

ـ نهائيًّا!..

ـ نعم..

ـ قال إنَّ الحياة في تونس أفضل بكثير من هنا.. وأرخص.. بالمبلغ الذي يمنحه لنا صندوق التقاعد، نستطيع أن نعيش هناك عيشة الملوك..

جلستْ من جديد، لكن بالقرب منِّي هذه المرَّة. أعتقد أنَّها لم تنتبه إلى المسافة التي تفصل بيننا، فقد كانت منشغلة بموضوع العودة إلى تونس. دسَّت في فمها علكة وراحت تلوكها. استثارتني شفتاها وهما تتحرَّكان. كانتا منتفختَيْن قليلًا من أثر النوم أو الاستحمام.

ـ منذ فترة، يريد منصور أن نعود إلى تونس.. لكن لم أوافق.. الآن، أرى أنّ من الأفضل أن نعود.. تعبت من الخدمة في البيوت.. ثمّ إلى متى سنظلّ نعيش في الغربة؟.. وعلى أيّ حال، فإنّ فرنسا لم تَعُد كما كانت لمَّا أتيت..

ـ وابنُك كريم؟

ـ سيبقى هنا للعلاج.. لا مستقبل له في تونس.. سنترك له البيت.. لقد صار رجلًا الآن.. يجب أن يتدبَّر أمره بنفسه.. لقد ساعدناه أكثر من اللَّازم.. سيتزوَّج.. وتصير له عائلة..

ركَّزتُ بصري على شفتَيْها خلسة. صارَت حركتهما أبطأ، ممَّا جعلها تبدو أكثر إثارة. انحنت صوبي، وقالت بنبرة مَنْ تذكَّر فجأة شيئًا مهمًّا:

ـ أمس في الصباح.. ذهبتُ إلى بيتك.. طرقتُ بابك.. لم تكن هناك.. أردتُ أن أخبرك أنِّي لن آتي هذا الأسبوع لتنظيف بيتك.. ولن آتي الأسبوع الذي بعده.. سأتوقَّف عن العمل عندكم.. وفي كلِّ البيوت..

ـ لماذا؟

ـ تعبت.. لم أعد أتحمَّل التعب كما في السَّابق..

خَيَّم الصمت. أحسستُ أنَّ أمورًا كثيرة تحدث حولي من دون أن أنتبه إليها.

ـ وأنت.. ألم تفكِّر في العودة نهائيًّا إلى تونس بعد التقاعد؟

ـ لا..

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.. ربَّما لأنَّ زوجتي فرنسيَّة..

ـ وما المشكلة؟

ـ لا تستطيع أن تعيش في تونس..

هزّت رأسها ولم تنبس بكلمة. في الحقيقة، لم أفكِّر بجديّةٍ في العودة إلى تونس أبدًا، كما لم أطرح المسألة على بريجيت. إلَّا أنِّي أميل إلى أنَّها لن توافق لو فعلت. عدتُ أحدِّق في شفَتَيْ زهرة. إنَّها المرَّة الأخيرة التي أنفرد بها في مكان مغلق. من المؤسف أن تنتهي علاقتنا بمثل هذه السُّرعة، وفي مناخ عجيب كهذا. قرَّرتُ أن أقبِّلها على شفتَيْها قبلةً واحدةً لكن طويلة، ثمّ أدسّ يدي تحت فستانها وأداعب نهدَيْها. كنتُ واعيًا بأنِّي سأتجاوز بذلك الحدود التي رسمتُها لنفسي. لكن، خُيِّل إليَّ

آنذاك أنَّ هذا لن يشكِّل أيّ خطر، لا عليَّ ولا عليها، لأنَّ علاقتنا على وشك الانتهاء، هذا إن لم تكن قد انتهت بعد. لا أدري لماذا ظننت أنَّها لن تمانع، بما أنَّنا نلتقي للمرَّة الأخيرة. حين دنوتُ منها، نهضَت وخطَت إلى الوراء:

ـ من فضلك.. سي عاشور..

ازددتُ اقترابًا منها وعيناي مركَّزتان على شفتَيْها.

ـ احترم نفسك.. سي عاشور.. لا يليق بك هذا..

كأنَّ كلامها هذا يشجِّعني على الاقتراب منها أكثر. واصلَت تراجعها حتّى ألفت نفسها محصورة في زاوية. انحنيتُ عليها ومددت عنقي محاولًا بلوغ شفتَيْها. جلدها بارد وشعرها لا يزال مبلَّلًا. شممت رائحة الصابون، فتأجَّجت رغبتي. دفعتني بقوَّة وأفلتَت منِّي، ثمَّ صرخت:

ـ اخرج من بيتي.. اخرج..

صراخها هو الذي جعلني أنتبه إلى ما كنتُ بصدد فعله، وكأنِّي أفقتُ من حلم. أصابني الذهول. لأوَّل مرَّة تصرخ في وجهي، ولأوَّل مرَّة أيضًا أتلقَّى أمرًا منها، وأيُّ أمر!

– 24 –

ساورتني مشاعر متناقضة طوال ذلك اليوم، فأنا من جهة، حزين وأشعر بالذلّ لأنَّ زهرة طردتني من بيتها، وهو أمر ما كان ليخطر أبدًا ببالي. ولكن من جهة أخرى، أنا سعيد، لأنَّ طردها لي، وخاصَّة بتلك الطريقة المهينة، أراحني وحرَّرني من تعلُّقي بها الذي اتَّخذ في الفترة الأخيرة منحى لم أكن راضيًا عنه، ومكَّنني من أن أضع حدًّا نهائيًّا لعلاقة أفلتت منِّي ولم أعد قادرًا على التَّحكُّم فيها.

وفيما بعد، تتالت الأحداث بسرعة عجيبة. توقَّفَت زهرة عن العمل في بيتنا كما قالت لي في لقائنا الأخير. ثمّ انقطعت عن الخدمة في كلِّ البيوت الأخرى كما علمتُ من السيِّد غونزاليس. تناقص كثيرًا ظهورها في مدخل العمارة وبالقرب من صناديق البريد وفي مكان حاويات القمامة. من المؤكَّد أنَّها غيَّرت أوقات خروجها لكيلا تتطابق مع أوقاتي التي تعرفها جيِّدًا. عاد منصور وابنه من تونس. والغريب أنَّ علاقتي به صارت أفضل ممَّا كانت عليه. صحيح أنَّه ظلّ قليل الكلام وحذرًا في تعامله معي ومع الآخرين، لكنَّه صار أكثر تلقائيَّة حين يلتقيني. تحيَّاته لي المقتضبة أصبحت أقلّ فتورًا، بل وفيها قليل من الحرارة. وفي بعض الأحيان، يقترب منِّي أكثر من العادة وينظر إليَّ وقد ارتسمت على شفتَيْه ما يشبه الابتسامة الخجولة. وهناك شيء آخر لديه لفت انتباهي بعد أيَّام قليلة من عودته، وهو أنَّه أصبح كثير الخروج. صرت أراه كلَّ يوم تقريبًا مثلما كنتُ أرى زوجته في السَّابق. كأنَّ هناك تبادلًا في الأدوار بينه وبينها. كأنَّه حلَّ محلَّها للقيام بما كانت تقوم به من جلب البريد ووضع أكياس الزبالة في حاويات القمامة. وربَّما بدَّل لسبب ما أوقات خروجه، فصارت مطابقة لأوقات خروجي.

إلَّا أنَّ التغيُّر الأكبر الذي لاحظته ولاحظه أغلب سكَّان العمارة هو أنَّه لم يَعُد مهملًا. صار أكثر اعتناء بمظهره. صحيح أنَّه لا يزال يرتدي ثيابًا تبدو فضفاضة بالنِّسبة إلى جسده على الرَّغم من أنَّه سمن قليلًا، لكنَّها ليست قديمة. في الكثير من الأحيان، كان ذقنه محلوقًا وشعره ممشوطًا. صار أيضًا ينتعل حذاء ويلبس جوارب حين يخرج من بيته، وإن لم يتخلّ نهائيًّا عن المشّاية والخفّ. وبدافع فضولي، حاولت في فترة ما أن أعرف سبب هذا التغيُّر. تساءلت عمَّا إذا كان له علاقة بقرار زهرة التوقُّف عن العمل في بيتي والبيوت الأخرى. ربَّما منحها هذا التوقُّف ما يكفي من الوقت لكي تهتمّ به أكثر ممَّا كانت تفعل في السَّابق. ولعلّ المدّة الطويلة التي أمضاها في تونس أعادت له الثقة في نفسه وأفادته معنويًّا ونفسيًّا وجعلته يرى الأمور بمنظار مختلف.

وخلافًا لِما كنت أنتظر، لم تتفاجأ بريجيت كثيرًا حين أخبرتها أنَّ زهرة توقَّفت عن العمل في بيتنا. ولم يَبْدُ عليها ما يدلّ على أنَّها أحسَّت بالسرور أو الارتياح أو شيء من هذا القبيل. هزَّت رأسها وتطلَّعت إليَّ للحظة طويلة، ثمّ سألتني عمَّا إذا كانت غير راضية عن المبلغ الذي كنَّا ندفعه لها، ثمّ عمَّا إذا كنتُ أسأتُ معاملتها يومًا ما. وعندما قلت لها إنَّ لتوقُّفها أسبابًا شخصيَّة على ما يبدو، صدَّقتني. طلبَت منِّي أن أدفع لها كلَّ مستحقَّاتها، مؤكِّدةً على أنَّها ستظلّ تعاملها باحترام. لم يؤثِّر انقطاع زهرة عن العمل كثيرًا على تنظيف البيت. ولأنَّ بريجيت تعمل كلَّ يوم، وتعاني من أوجاع في عمودها الفقري، فقد تطوَّعتُ للقيام بهذه المهمَّة، كما كنتُ أفعل قبل أن نستعين بخدمات زهرة. ولم يَعُد باستطاعتي، بحكم تقدُّمي في العمر، أن أنجز المهمَّة في يوم واحد ولعدَّة ساعات متتالية. صرت أوزِّع العمل على ثلاثة أيَّام. وقد كان لديَّ من الوقت ما يكفي للقيام بذلك على راحتي، ومن دون أن أُتعِب نفسي كثيرًا.

وساعدني هذا بصورة ما على أن أنسى محنتي؛ إذ إنَّ الانهماك في العمل اليدويّ يريحني ويجدِّد نفسي، ويطردُ الهواجس من ذهني.

– 25 –

بعد أشهر قليلة، عاد منصور وزهرة إلى تونس. علمت بذلك صدفةً، عن طريق مسيو غونزاليس. تفاجأتُ بالسهولة الكبيرة التي تمَّت بها العودة، وخصوصًا بعدم انتباهي إلى ذلك. لا بدَّ أنَّهما درسا الأمر مليًّا وخطَّطا له تخطيطًا مُحكمًا. استغرب مسيو غونزاليس عدم علمي بالخبر. بدت علامات الحيرة على وجهه. ظلَّ يحدِّق فيَّ للحظة طويلة من دون أن ينبس بكلمة. لأوَّل مرَّة يفعل هذا. لعلَّه لم يصدِّقني. وربَّما يريد أن يوحي لي بأنَّه كان على علم بأنَّ هناك علاقة بيني وبين زهرة تتجاوز علاقة الخادمة بمخدومها، وأنَّ محاولة التظاهر أمامه بعدم معرفة ما حدث لم تَعُد مُجدية الآن وقد غادرت زهرة فرنسا واستقرَّت في تونس. ولم أكن أتصوَّر أنَّ خبر عودتها إلى تونس سيوقعني في حال من الحزن شبيهة بتلك التي انتابتني خلال الأيَّام الأولى التي أعقبت طردها لي من بيتها. كان من المفترض أن أبتهج بذلك، لأنَّ انتقالها إلى بيت آخر، في مكان بعيد جدًّا يقع خارج فرنسا، يعني أنَّ علاقتي بها انتهت حقًّا، وأنَّني تخلَّصت إلى الأبد من هذه الورطة التي أربكتني لفترة طويلة وكادت تدمِّرني وتعصف بزواجي. لكن ما حدث هو العكس؛ رحتُ أتساءل عمَّا إذا كنت من فصيلة هؤلاء العشَّاق الذين يجدون متعة في العذاب، ويلتذُّون باجترار الماضي.

مرّت عدَّة شهور. استعادت حياتي شيئًا فشيئًا إيقاعها القديم. خلال تلك الشهور، التقيتُ بالصدفة بأحد الأصدقاء التونسيّين القدامى. كان أكثرهم قربًا منّي. سعدنا كثيرًا بالالتقاء من جديد، وعدنا نجلس بين الحين والآخر معًا في المقاهي. أعتقد أنَّ جلساتنا، وكلّ ما كان يتخلَّلها من أحاديث ونقاشات عن تونس والتحوُّلات التي تَشهدها، كانت مفيدة لي، فقد ساعدتني إلى حدٍّ بعيد على نسيان زهرة.

ذات يوم، استيقظت باكرًا. كنتُ قد نمتُ جيّدًا، ولم يعكِّر نومي أيّ حلم مزعج. ومع ذلك، كنت كئيبًا. أعرف جيّدًا هذه الكآبة التي تنتابني بدون سبب واضح حالما أستيقظ؛ إنَّها أقسى أنواع الكآبة. حاولت أن أتخلَّص منها أثناء تناول الفطور برفقة بريجيت. كانت فرحة بي في ذلك الصباح لأنّي أنا الذي أعددت لها الفطور. لقد استفدتُ من إفاقتي المبكِّرة وحضَّرته على مهل، إلَّا أنّي لم أنجح في السيطرة على كآبتي. بعد توجُّه بريجيت إلى مقرّ عملها، لم أتحمَّل البقاء وحيدًا في البيت. انهمكتُ في العمل هربًا من إحساسي بالوحدة. سوَّيت الفراش، وفتحت كلّ النوافذ للتهوية، وغسلت الفناجين والسكاكين والملاعق. وحين انتهيت من ذلك، جلستُ على الكنبة ثمَّ فتحت المذياع للاستماع إلى شيء من الموسيقى الكلاسيكيَّة. عندئذٍ، تذكَّرت أنَّ اليوم هو الثلاثاء الذي كنتُ ألتقي فيه بزهرة في بيتي.

أغلقتُ المذياع ثمّ غادرت الشقَّة، ورحتُ أمشي على غير هدى. كان الطقس باردًا. وعندما بدأ المطر ينزل، لم أتوقَّف أمام عمارة أو تحت شجرة للاحتماء منه، بل واصلت السَّير غير عابئ بذلك. وبعد وقت طويل، وجدتُ نفسي بالقرب من المقبرة التي دفنَّا فيها مدام ألبير. سرتُ بمحاذاة جدارها العالي، ثمّ انعطفتُ إلى أوَّل شارع صادفني. وبعد بضع خطوات، صرت أمام المقهى الذي قبَّلتُ فيه زهرة. دخلته من دون تردُّد. وجلستُ إلى الطاولة التي جلسنا إليها. عندما عدتُ إلى العمارة، التقيتُ بكريم في مدخلها. كان منهمكًا في قراءة شيء ما. منذ مدَّة، لم أره. لقد تغيَّر كثيرًا، سَمن، واختفى ذلك الحرج الذي كان يظهر عليه كلَّما رآني، وصار أكثر ثقة في نفسه. أعتقد أنَّ الحياة بعيدًا عن والدَيْه أفادته. توقَّف عن القراءة وصافحني، وفيما كنتُ أفتح صندوق بريدي، سألني:

ـ هل تعرف ماذا كنت أقرأ؟..

قلت بلا اكتراث.

ـ ماذا؟

تقدّم خطوتيْن صوبي.

ـ رسالة من أمّي..

إنَّها المرَّة الأولى التي يتحدَّث فيها عن أمِّه في حضوري.

ـ الأخبار عن تونس غير سارَّة..

صمت. ثمَّة قليل من القلق في نبرة صوته. و كان واضحًا أنَّه ينتظر منِّي أن أقول شيئًا ما. وحين لاحظ أنِّي لم أنبس بكلمة أضاف:

ـ نسيت أن أقول لك إنَّ أمِّي تلفنت لي..

اعتراني شيء من الارتباك..

ـ متى؟

ـ قبل ثلاثة أيَّام..

هززت رأسي محاولًا إخفاء ارتباكي.

ـ وطلبت منِّي أن أسلِّم على الجيران في العمارة..

بعد تردُّد سألته:

ـ كلّ الجيران في العمارة؟

ـ نعم.. كلّ الجيران..

كانت هناك رسالتان في صندوق بريدي. واحدة من الجامعة والأخرى من مصلحة الضرائب. دسستهما في جيبي دون أن أفتحهما. ثمَّ ودَّعته. دخلت الشقَّة. بَيْدَ أنَّني لم أجلس على الكنبة لأستريح كما أفعل بعد كلّ جولة. توجَّهت إلى النافذة وفتحتها. ثمَّ رحت أتطلَّع إلى شجرة الدلب الضخمة التي تقوم في باحة العمارة. وعندما أغلقت النافذة تذكَّرت أنَّ زهرة كانت تحبّ هذه الشجرة.

للمؤلف

روايات

- جبل العنز. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1988.

- صورة بدوي ميت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1990.

- متاهت الرمل. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1994.

- حفر دافئة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1999.

- عشاق بية. دار الآداب. بيروت 2002.

- أسرار عبد الله. دار الآداب. بيروت 2005.

- روائح ماري كلير. دار الآداب. بيروت 2008.

- عواطف وزوارها. دار الآداب. بيروت 2013.

قصص قصيرة

- مدن الرجل المهاجر. الدار العربية للكتا. تونس 1977.

- امرأة الساعات الأربع. دار النورس. تونس 1986.